راسلاس

أمير الحبشة

صموئيل جونسون

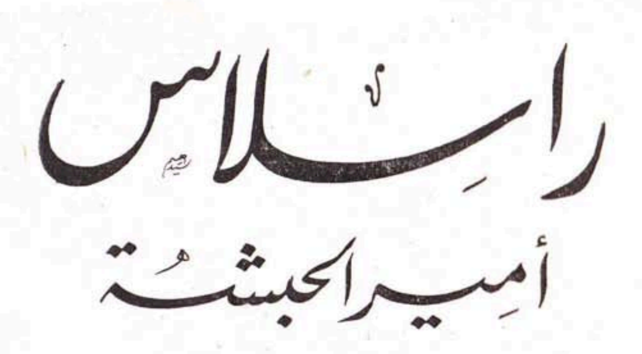
ترجمة

مجدي وهبه   كامل المهندس

تصوير

سبيرو ديامانتيس

١٩٥٩



بقلم

استدراك .

وقع خطأ فى صفحة ١٧ سطرى ١٤ ، ١٥ وصحته :

حيث لفت نظر أساتذته بإجابته على سؤالهم باللاتينية

مقتبساً إياها من فيلسوف رومانى ...

تصوير

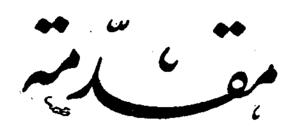
سبيرو ديامانتيس

الناشر

مكتبة الانجلو المصرية

مطبعة كوستاتسوماس وشركاه
[illegible]

فهرس



مقدمة

إن حياة جونسون استغرقت أغلب القرن الثامن عشر ، فقد ولد عام ١٧٠٩ ومات عام ١٧٨٤ . وإذا نظرنا إلى منزلته السامية فى الأدب والفكر استطعنا أن نعده هو وانتاجه رمزاً وخلاصة للتيارات الفكرية والأدبية فى انجلترا فى ذلك القرن . وأول ما يلفت النظر فى إنتاجه الفكرى والأدبى أنه برهان ساطع على بطلان الفكرة التى كانت سائدة وقتئذ، وهى أن ذوق العصر وأخلاقه تتراوح بين الرقة المتكلفة والمنطق الذى لا يقبل الجدل ، وهذا ما سنتبينه بوضوح حينما نستعرض حياة جونسون .

وقبل أن نستعرض حياته يجدر بنا أن نلم إلمامة بحياة انجلترا السياسية، والاجتماعية والفكرية فى ذلك الوقت .

لقد كانت بداية القرن الثامن عشر نقطة تحول فى حياة انجلترا السياسية ، ففى سنة ١٧٠٤ هزمت الجيوش الانجليزية بقيادة دوق مورلبرا (Marlborough) جيوش لويس الرابع عشر أقوى مستبد فى أوروبا فى معركة بلنهايم (Blenheim) . ولعل سر هذا الانتصار يرجع

إلى أن انجلترا قد خلفت وراءها قرنين من الحروب الأهلية والمنازعات الدينية فى سبيل توحيد كلمتها تحت لواء حكم مركزى محوره أسرة مالكة محايدة وبرلمان يسن القوانين ويتكون من حزبين يتداولان الحكم بينهما . غير أن المراقبين الأوروبيين ظنوا حينئذ أن هذه الوحدة وتلك القوة التى نجمت عنها لم تكن إلا نتيجة للنظم الديموقراطية البرلمانية التى يشعر كل فرد فى ظلها بما له من حقوق وما عليه من واجبات . ومما يؤيد ذلك ما قاله فولتير فى إحدى رسائله عن الانجليز : « إن الأمة الانجليزية هى الأمة الوحيدة التى استطاعت أن تنظم سلطة ملوكها أثناء مقاومتهم لها ، حيث كان الأشراف عظماء من غير غطرسة وبدون أتباع ، وحيث اشترك الناس فى الحكم من غير فوضى . وفى انجلترا اعتاد الشعب على التفكير ، والأدب مراعى فيها أكثر منه فى فرنسا . وهذه الميزة نتيجة حتمية لنظام الحكم الانجليزى » . ومن العجيب — بالرغم من أن الحروب كانت مستمرة فى أوروبا وخاصة بين فرنسا وانجلترا معظم هذا القرن — أن رأى فولتير هذا كان يردده جمهرة المثقفين بالقارة الأوروبية ممن عاشوا فى ظل الحكم المطلق ، فأصبحت انجلترا فى أعينهم نموذجاً للتفكير السليم فى مجتمع قوى حر .

ومع أن هذا الرأى لا يخلو من المغالاة وحتى من البطلان فإنه بالموازنة بين نظم الحكم والعدالة الاجتماعيــة فى القارة الأوروبية نجد أن انجلترا كانت أقل أمم أوروبا استبداداً وكبتاً للحريات . ومما زاد فى قوة انجلترا وسموها فى نظر المثقفين الأوروبيين أن الحياة الاجتماعية فى انجلترا لم تكن — كما كانت فى أغلب البلاد الأوروبية — مقصورة على المدن بل كانت تعم المدن والأرياف ، فقــد كان الأشراف يقضون أكثر وقتهم فى ممتلكاتهم بالريف مندمجين فى الشعب بعيدين عن بلاط الملوك والمؤامرات التى كانت تحاك فيه طمعاً فى حظوة لدى الملك وقد كان فى معظم القــارة الأوروبية المصدر الوحيد للسلطات . وكانت نتيجة هذا فى انجلترا نوعاً من التضامن القومى بين الطبقات حماها مما وقعت فيه فرنسا مثلا من التوترات الداخلية السياسية والاجتماعيــة التى أدت فى النهاية إلى ثورة سنة ١٧٨٩ . فضــلا عن أن جمهرة الشعب الانجليزى كانت تتخذ الريف وطناً لها . ومع مشقة العمل فى الريف وزهادة أجوره كان العيش مكفولا فيــه لقرب الفلاحين من مصدر الإنتاج . ولا ينبغى أن نغفل الحقيقة الآتية وهى أن الحياة فى الريف كانت تستند إلى أساس أعدل مما كانت عليه الحال فى المدينة ، فقد كانت الكنيسة القروية

مركزاً اجتماعياً للقرية ، وكانت تجبى ضرائب زهيدة من سكانها جميعاً بلا تفريق بين الطبقات ، وتفتح بما يجبى مدارس للتعليم الأولى وملاجئ للأيتام والعجزة ، فكانت القرية مجتمعاً قائماً بذاته يشعر كل فرد فيها بمسئولية اجتماعية مطلقة . بيد أن الحال تختلف تمام الاختلاف عند ما نتجه إلى المدينة ، إذ كان الأصل فى تكوين المدن خلق أسواق لمنتجات الريف أو تجميع العمال والتجار حول صناعات معينة ، فلم يكن أغلب سكانها على هذا أصيلين فى سكناها ، كما أنه لم تكن لهم تقاليد اجتماعية واحدة . وعلى الجملة كان سكانها عبارة عن جماعة لا يربط بين أفرادها سوى رابطة الصناعة أو التجارة .

وأما لندن العاصمة فقد كانت فى القرن الثامن عشر تمر بمرحلة توسع سريع إذ كان عدد سكانها فى سنة ١٧٠٠ نصف مليون ، وفى سنة ١٧٥٠ بلغوا ثلاثة أرباع المليون ، وفى نهاية القرن قاربوا المليون . وتبعاً لكثافة السكان ترامت أطراف المدينة، فبعد أن كانت مجرد ثغر تجارى ، رغم أنها عاصمة ، بدأت تتوغل داخل الريف فاندمجت القرى المحيطة بها ضمن مساحتها ، كما شرع الأشراف وكبار التجار يشيدون فيها قصوراً بالأموال التى حصلوا عليها نتيجة للثراء الذى أصابوه من الانتصارات العسكرية فى القارة الأوروبية والتوفيق

الذى حالفهم فى استعمار أمريكا والهند . فأصبح فى لندن منطقة سكنية ممتازة تقع فى غربها ، أما المدينة القديمة فظلت فى مكانها بالشرق . وأما لندن التى وصفها الرحالون الأوروبيون فى القرن الثامن عشر فكانت تمتاز بفارق عظيم بين شرقها وغربها ، ففى غربها الطرق المرصوفة والأطورة والمجارى الخفيـــة فى باطن الأرض والإضاءة والسكون والأمن ، أما فى شرقها فقد كانت الطرق موحلة وغير مرصوفة كما كانت مجاريها على سطح الأرض يقذف إليها بفضلات الطعام وغيره من النوافذ وقد تصيب المارة أثناء سيرهم فى الطريق . وكان القصابون يذبحون الماشية فى الطريق العام ويرمون أمعاءها فيه تتنازعها كلاب الحى . وكان الفقراء فى هذا الجزء من لندن فى حالة يرثى لها يلتمسون السلوى والدفء فى شراب « الجن » ، وكان قد أدخل إلى انجلترا من هولاندا فى مستهل القرن الثامن عشر ، وكانت خمراً قوية رخيصة حلت محل « البيرة » الضعيفة الأثر التى كان لا بد أن يتناول منها الفرد كمية كبيرة ليصل إلى درجة النشوة والابتهاج . وكان شرب « الجن » مأساة عامة بين سكان شرق لنـــدن رجالا ونساء وأطفالا ، إذ كانوا يفضلونه على طعامهم ، فأصيب آلاف مؤلفة من جراء ذلك بالسل والجنون ، وأصبحوا يهيمون على وجوههم جزءاً من الأقذار التى تغص بها الطرقات . وحتى بعد أن سن البرلمان تشريعاً يحد من بيع الخمر فى سنة ١٧٥١ لم

يقض على هذا الإدمان الشنيع الذى كان من نتيجته ازدياد عدد الجرائم والمجرمين . وكانت العقوبات التى تلحق المجرمين من نوع عتيق ، فقد كانت العقوبة على سرقة حمل أو بعض من الخضر الشنق علنا على تل « تيبرن » (Tyburn) ، كما كان المدين يعتبر ضحية لدائنه الذى يستطيع أن يقذف به فى غياهب السجن مدى الحياة ما دام المدين عاجزاً عن سداد دينه . وكان الجمهور يخشى باستمرار أحد اثنين ، قطاع الطرق الذين يسلبون المارة ويجبون الضرائب من المتاجر من غير خشية ولا رقيب ، وعصابات الحكومة التى كانت تنقض على أقوياء الشباب لينتظموا فى سلك الجيش أو البحرية . وكانت التسلية الوحيدة لفقراء لندن النظر إلى حالات الشنق لصغار المجرمين وكبارهم على تل « تيبرن » ، واتخذت هذه المناظر موضوعاً للشعر والزجل والمرددات الشعبية . وأما الطبقة المتوسطة فكانت تسليتها أكثر تمديناً وإن كانت باهظة الثمن نسبياً ، فقد كانوا يجتمعون فى حديقتى « فوكسهول » (Vauxhall) و « رانلا » (Ranelagh) الشبيهتين بمدن الملاهى فى القرن العشرين . ولم يكن دخول هاتين الحديقتين بالمجان ، لهذا كان وسطهما أرقى من المجتمعات الأخرى ، ومع ذلك كثيراً ما كان قطاع الطرق يترددون عليهما طمعاً فى سلب المتريضين ما معهم من مال وحلى . وبالإضافة إلى ذلك كانت الطبقة

الوسطى تتخذ من المقاهى مجتمعاً لها ، وكانت قد أدخلت إلى لندن فى منتصف القرن السابع عشر ، وزاد عددها حتى بلغ فى منتصف القرن الثامن عشر خمسمائة مقهى ، وكانت فوق وظيفتها هذه مجتمعاً تجاريا هاما ، واختص كل مقهى بمجتمع تجارى أو صناعى معين . وأما المسرح فقد قصر — بمقتضى قانون صدر سنة ١٧٣٧ — على دارين فقط ، غير أن شدة الإقبال عليه أدت إلى التحايل لبناء ستة مسارح أخرى على حدود لندن القانونية . وأما الطبقة الخاصة من الوجهاء والمفكرين فقد كانت تتردد على « صالونات » يشرف عليها بعض السيدات الموهوبات أمثال مسز « منتاجيو » (Montagu) ، ومسز «فزى» (Vesey) . ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن الكتاب والأشراف أنفسهم كانوا يترددون على نفس هذه الصالونات ، وكان فى هذا عون كبير للكتاب ، وذلك لأنهم كانوا فى أمس حاجة إلى مساعدة الأشراف فى القيام بنفقات نشر كتبهم ، إذ أن نظام النشر لم يظهر إلا بعد منتصف القرن الثامن عشر . كذلك كان الأشراف يجدون فى صحبة الكتاب حديثاً طليباً ووسيلة للإشادة بذكرهم عن طريق المدح المباشر تارة وإهداء كتبهم إليهم تارة أخرى ، وبهذا يشعرون برضى وقناعة لأنهم أصبحوا رعاة الثقافة وحماة الأدب . غير أنه بظهور الدكتور جونسون على مسرح الأدب انتهى العهد الذى كان فيه

الأدب يحتاج إلى من يشجعه ويحميه ، فقد جاهد بكل ما يملك من قوة بيان وهجاء لاذع أن يقوض هذا الوضع وأن ينتزع للأديب مركزاً اقتصادياً مستقلا .

وإذا انتقلنا إلى الحياة الفكرية رأينا أن أهم عامل كان يسيطر عليها فى القرن السابع عشر هو العامل الدينى . وقد أفضى إلى منازعات حادة وخلافات عنيفة لم يسلم منها أى نوع من أنواع الأدب ، غير أن الاستقرار النسبي الذى ساد القرن الثامن عشر قد جلب معه محاولات شتى لإيجاد نظرية دينية مقبولة من جميع المفكرين أساسها الاعتقاد السائد وقتئذ بأن جميع العقول البشرية متساوية فى قوة الإدراك ، وأن هذه العقول ليست سوى انعكاس للعقل الإلهى ، وأن الدين يجب أن يكون له أساس من المنطق والعقل حتى يقبله جميع الناس . وهذا الاتجاه (وهو يشبه إلى حد كبير آراء المعتزلة فى الإسلام : وقد بدأ أمرهم بتلمس أسباب معقولة لتأييد الأدلة الشرعية النقلية ، ثم غالوا فى آرائهم حتى جعلوا النقل خاضعاً للعقل) ، نتج عنه مئات من الكتب والمواعظ موضوعها تفسير ما فى الكون تفسيراً معقولاً ، وتبرير خلق هذه الكائنات تبريراً يقبله المنطق والعقل . وأساس هذه العقيدة عقيدة أخرى هى أن الإنسان محور الخلق وأن الغاية من خلق ما فى الكون جميعه أن يكون مسرحاً لحياة

الإنسان ، فهو أحب المخلوقات إلى الله ، وكل ما يحدث فى الكون يعلمه الله أزلا ، ولا بد أن ينتهى بما فيه خير الإنسان ولو لم يدركه . فقلت بذلك أهمية بحث ما وراء الطبيعة ، واتسع المجال أمام علم التماس سبب معقول للتصرفات الإلهية نحو الإنسان (Theodicy) وعلم الأخلاق البشرية ، وشعر الفلاسفة وعلماء الكلام بأن الوقت قد حان لإيجاد دين يقبله كل الناس فى جميع العصور ، وهذا الدين فى نظرهم هو المسيحية المعقولة لا المسيحية المتشائمة المبنية على افتراض النقص الإنسانى والخطيئة المتأصلة فى البشر . فعم الروح الفكرية تفاؤل شامل وأدى ذلك إلى جميع النظريات الفلسفية التى أساسها الاعتقاد بأن الإنسان خير بالفطرة ، وأن ما اكتسبه من شرور ليس سوى نتيجة للبيئة الاجتماعية التى يعيش فيها . وجان جاك روسو الذى تنسب إليه هذه النظرية لم يكن سوى مرآة انعكست فيها الاتجاهات التى كانت تسود أوروبا فى القرن الثامن عشر . وإذا اتجهنا نحو انجلترا بصفة خاصة وجدنا أن هذا الجو الفكرى تمتد جذوره إلى شبه الثورة الفلسفية التى قام بها « جون لوك » (John Locke) (١٦٣٢ — ١٧٠٤) فى أشهر مؤلفاته الفلسفية « رسالة فى الإدراك الإنسانى » (١٦٩٠) . وأهم المبادئ الجديدة التى وضعها جون لوك يتخلص فيما يأتى :

أولا — أنه لا جدوى من الجدل فى الفلسفة قبل الاصطلاح على التعريفات ، فالدقة فى التفكير تنتهى فى رأيه إلى مشكلة لغوية .

ثانيا — أن العقل البشرى يبدأ صفحة بيضاء لا نقش فيها ولا أفكار وأن الصور الذهنية تحتله شيئاً فشيئاً عن طريق الحواس . وليس غريباً أن يتطور هذا المبدأ إلى مبدأ التفاؤل الذى ساد فى القرن الثامن عشر القائل بأن الإنسان ليس شريراً بفطرته .

ثالثاً — أن الخير والشر ليسا سوى مبدأين متعلقين بالسرور والألم . وهذا المبدأ يفترض الاعتقاد فى خلق منسجم ترتبط فيه عناصره بعضها ببعض . وبذلك يكون لوك قد ربط فلسفة الأخلاق بنظرية نفعية أساس الخير فيها سرور المرء بفعله وأساس الشر ألمه لارتكابه . وأما الشرور التى لا يد للإنسان فيها أمثال الزلازل والأعاصير فمع أنه يألم لها قد تفضى إلى منفعة للصالح العام الذى يجهله الإنسان حال وقوعها . ومن هذا المبدأ استمد آدم سميث نظريته الاقتصادية القائلة بترك التجارة حرة حتى تستطيع بحكم ميل الإنسان للخير وابتعاده عن الشر أن تنظم نفسها بنفسها، كما تأثر بهذا المبدأ الفيلسوف الألمانى لايبنتس (Leibniz) الذى تعتبر فلسفته نموذجاً للتفكير فى القرن الثامن عشر ،

وأساسها الاعتقاد فى انسجام وضعه الخالق فى الأزل ، وعلى كل إنسان أن يكشف لنفسه المبادئ التى بنى عليها هـذا الانسجام ، فإذا سار بمقتضاها سعد وسعد الخالق وعم الخير. وقـد شرح نظريته هذه فى كتابه بالفرنسية Théodicée (علم التماس سبب معقول لتبرير التصرفات الإلهية نحو الإنسان) الذى ظهر فى سنة ١٧١٠ . وعلى الجملة يعتبر لوك موئسساً للتقليـد الفلسفى الانجليزى الذى قاده باركلى (Berkeley) وهيـوم (Hume) فى القرن الثامن عشر وحتى بنتم (Bentham) فى مستهل القرن التاسع عشر .

واشتهرت فى هذا العهد مناظرتان الأولى خاصة بالبحث عن الخير هل يوجد فى الإنسان البدائى أو المتحضر؟ والثانية أدبية بحتة وتتعلق بالمفاضلة بين الأدب القديم والأدب الحديث ، وهل من الأفضل أن نتقيد بمناحى الأدب القديم (أدب الإغريق والرومان) أو أن نبتكر أدباً مستقلاً قائماً على أسس جديدة ؟ وانقسم المفكرون والـكتاب تبعاً لذلك معسكرين .

أما من يرون من أصحاب المناظرة الأولى أن الإنسان خير بفطرته — ويوجبون لهذا أن يعود إلى حياة الفطرة الأولى — فهم سفسطائيين فى مناظرتهم أكثر منهم منطقيين لأن الإنسان لا يستطيع بحال أن يعود إلى الحياة البدائية بعد

أن قطع أشواطاً بعيدة فى المدنية والحضارة ، غير أن اتجاههم هذا كان رد فعل لفرط إمعانهم فى الحياة الحضرية . على أن رأيهم هذا لايتلاءم مع المسيحية الرسمية المبنية على أن الإنسان مذنب بفطرته ولا دخل للتربية والبيئة فى ذلك . وترتبط نظرية البدائيين هذه بالنظرية المتقدمة القائلة بأن العقل البشرى عبارة عن مصباح يضىء للإنسان حقيقة العالم المنسجم الذى يعيش فيه ويؤهله للسير على مقتضاه فيرتقى دائماً من مرحلة أدنى إلى مرحلة أعلى . والعودة إلى حياة الفطرة الأولى — فى نظر البدائيين — هى وسيلة هذا الارتقاء .

وأما عن المفاضلة بين الأدب القديم والأدب الحديث فإنها مناظرة بدأت بفرنسا وانجلترا فى أواخر القرن السابع عشر وامتدت فى القرن الثامن عشر حتى الثورة الفرنسية وظهور المدرسة الرومانتيكية الانجليزية فى أواخر هذا القرن . وهذه المفاضلة أدت إلى ظهور النقد الأدبى بمعناه الحديث [أسسه دريدن (Dryden) بالنسبة لانجلترا فى أواخر القرن السابع عشر] غير أن المفاضلين بين الأدبين كانوا متأثرين فى جدلهم بأساليب الأدب القديم إلى حد كبير والتمشى مع أصوله . ولم تكن المدرسة الرومانتيكية الانجليزية إلا توفيقاً بين آراء المحدثين وآراء البدائيين لأن هذه المدرسة توجب أن يعبر الإنسان عما يجول بخاطره بغض النظر عن

القواعد والقوانين التى سنها القدامى ، وبوصفه شخصية مستقلة لا تخضع لمجتمع منظم وإن كان متحضراً .

كانت هذه هى الحياة فى القرن الثامن عشر الذى عاش فيه مؤلفنا ، فلنعرض الآن لتاريخ حياته .

ولد صمويل جونسون فى مدينة « ليتشفيلد » (Lichfield) بمقاطعة « وستشر » (Worcestershire) عام ١٧٠٩ وكان أبوه وراقاً فى تلك المدينة فألف الكتب منذ حداثته . وقد أصيب وهو فى سن الثالثة بالجدرى فضعف بصره وحمله أبواه إلى لندن لتمس الملكة جسمه بيدها فيشفى مما يعانيه على ما جرت به العادة والاعتقاد فى ذلك الوقت ، غير أنه ظل — رغم ذلك — مشوه الخلقة يأتى بحركات عصبية مع ضعف بصره طوال حياته . ودرس جونسون فى مدرسة ليتشفيلد ثم التحق بكلية « بمبروك » (Pembroke) بجامعة أكسفورد حيث لفت نظر أساتذته بإجابته على سؤالهم باليونانية مقتبساً إياها من فيلسوف يونانى اسمه مقروبيوس (Macrobius) . ولم يستمر فى هذه الكلية سوى أربعة عشر شهراً بين سنتى ١٧٢٨ و ١٧٢٩ وذلك لضيق الحياة الاقتصادية أمام والده ، فعاد جونسون إلى ليتشفيلد ليساعد أباه فى متجره ، ومات أبوه سنة ١٧٣١ تاركاً أسرته فى حال بائسة من الضيق والفقر . فعمل جونسون مدرساً مساعداً فى مدرسة « ماركت بوزورث »

(Market Bosworth) وهى مدينة صغيرة كانت سوقاً للتجارة بالقرب من برمنجهام ، وكان من وقت لآخر يحرر مقالات قصيرة لصحيفة فى برمنجهام . وفى سنة ١٧٣٥ أخرج أول إنتاج أدبى له غفلاً من التوقيع وهو ترجمة موجزة لترجمة فرنسية لكتاب « رحلة إلى الحبشة » تأليف الأب « لوبو » باللغة البرتغالية ، وفى نفس السنة تزوج من أرملة تكبره سناً اسمها السيدة « اليزابيث بورتر » (Elizabeth Porter) وأسس — بمعونتها المالية — مدرسة خاصة فى قرية بالقرب من ليتشفيلد غير أنه لم يوفق فى تجربته هذه ، وفى سنة ١٧٣٧ اصطحب دافيد جارك (David Garrick) — أحد تلاميذه الذى صار فيما بعد عملاق المسرح الانجليزى — إلى لندن وهناك شرع يكافح بقلمه طلباً للرزق ، فكتب لمجلة مشهورة اسمها The Gentleman's Magazine أسسها صاحب مطبعة اسمه « إدوارد كيف » (Edward Cave) عام ١٧٣١ .

وظل يكتب مقالات فى هذه المجلة بين عامى ١٧٣٨ و ١٧٤١ تحت عنوان « للبوشيا العظمى » (Magna Lilliputia) موضوعها مناقشات أعضاء البرلمان ، وذلك أن الصحفيين كانوا ممنوعين من دخول البرلمان فكان جونسون ينتظر خارجه من يفضى إليه بما حدث وبما قيل فى المجلس فينقله بدوره

وبعبارته إلى مجلته . فزاد الاقبال على هذه المجلة اعتقاداً من الجمهور أن مقــالاته هى نفس الألفاظ التى فاه بها أعضاء المجلس . غير أنه درج على استعارة أسماء خاصة بدلا من الأسماء الحقيقية « فللبوشيا » العظمى مثلا بدلا من بريطانيا العظمى وهكذا . وفى سنة ١٧٤١ استقال من عمله فى المجلة لأنه أبى — على حد قوله — أن يكون شريكا فى نشر هذا الكذب والبهتان . ولا بد من الاعتراف بأن قراره هذا ينطوى على الكثير من الشجاعة لأن لندن وقتئذ لم تكن — كما ذكرنا من قبل — فردوساً للفقراء والمعوزين . وحينما اتخذ جونسون هذا القرار كان يعلم حق العلم أن شبح الزج فى السجون يحوم حوله فأخذ يهيم فى الطرقات ليل نهار حتى لا يمكن القبض عليه والزج به فى السجن ، ولهذا السبب كان يعرض قلمه لكتابة أى شىء يرتزق منه فأصبح بهذا محترفاً للكتابة ، فيكتب المقدمات لكتب الاقتصاد أو دواوين الشعراء أو المواعظ الدينية كما كان يكتب بعضها للقساوسة . وبهذا المجهود الجبار نجح فى ألا يقع فى غياهب سجن المدينين .

وفى أوائل سنة ١٧٣٨ — قبــل أن يكتب للمجلة — أنشأ أهجية سماها « لندن » وكانت غفلاً من التوقيع كما كانت تقليداً للأهجية الثالثة للشاعر الرومانى « جوفينال »

(Juvenal) . وموضوعها بإيجاز أن شخصاً خيالياً اسمه « تاليز » ضاق بلندن وخطاياها فتركها ليعيش فى الريف ، وبينما كان متوجها إلى الريف عبر عن خواطره الثائرة لانحلال زمنه وظلم الفقير فيه وغطرسة الغنى وذيوع العادات الفرنسية الماجنة والخطورة التى يتعرض لها ساكن لندن من السلب والنهب . فاستقر « تاليز » فى الريف هرباً من حياة لندن . والغريب فى الأمر أن جونسون ينشىء مثل هذه القصيدة فى الوقت الذى أحب فيه لندن حباً جماً وهجر من أجلها الريف . وفى سنة ١٧٤٤ كتب « تاريخ حياة رتشارد سافدج » (The Life of Richard Savage) . وكان سافدج شاعراً فقيراً بوهيمياً ينتقل من مقهى إلى آخر شريكاً لجونسون فى فقره وعوزه وهيمانه فى الطرق . ومع أن هذين الصديقين على طرفى نقيض فى الميول والأخلاق ربطت بينهما أواصر المحبة إلى حد دفع جونسون أن يكتب تاريخ حياة صاحبه من غير أن يزرى به فى حكمه مع أنه كان عربيداً ماجناً .

وفى سنة ١٧٤٧ عرض على اللورد تشستر فيلد (Chesterfield) مشروعاً بتصنيف قاموس للغة الانجليزية ، وكان يعوزها حتى أوائل القرن الثامن عشر قاموس جامع ، إذ كانت قوائم الكلمات الصعبة مع شرح بسيط تقوم مقام

القواميس حتى ذلك التاريخ . وفى سنة ١٧٢١ وضع ناتان بيلى (Nathan Bailey) قاموساً اشتقاقياً سماه « القاموس الانجليزى العام » حاول فيه أن يسجل جميع الكلمات الانجليزية مستعملة أو مهجورة . أما جونسون فكان مشروعه على حد قوله إيجاد « قاموس يبحث فيه نطق لغتنا الانجليزية ، وتوضع جميع الكلمات الأصيلة والدخيلة تحت تصرف القارئ ، ويحفظ فيه للغة نقاوءها ، ويتحقق به من صحة استعمالها ، وبسببه تطول حياة اللغة » . وكان غرض جونسون من عرض هذا المشروع على اللورد تشستر فيلد أن يرعاه ويتولى الإنفاق عليه ، غير أن اللورد — وقد كان مشغولا بمهام الدولة وبآثار نفسه الأدبية — أهمل جونسون ، ولم يذكره إلا فى فبراير سنة ١٧٥٥ حينما أظهر جونسون — بعد جهد جهيد — قاموسه متولياً أمره بنفسه . فكتب اللورد مقالتين يشيد فيهما بهذا القاموس ، فأثار مديحه غضب جونسون وأرسل إليه خطاباً شهيراً يرفض فيه مديحه ويلومه على اهماله له ويشن غارة على نظام الرعاية للأدباء [وهذا الخطاب الشهير ترجمه الأستاذ الدكتور محمد مهدى علام عميد كلية الآداب بجامعة عين شمس ترجمة أدبية رفيعة فى كتاب « المطالعة الوافية للمدارس الثانوية » — الجزء الثالث ص ١٥ مطبعة كوستا تسوماس (سنة ١٩٥٥)] .

وفى سنة ١٧٤٩ نشر جونسون أهجيته الثانية على غرار الأهجية العاشرة « لجوفينال » وعنوانها : « زيف الأمانى البشرية » (The Vanity of Human Wishes) ، وفيها يعالج الشاعر الموضوعات المختلفة للطموح الإنسانى ، ثم يبين عبثها . فيبدأ بالسلطة ويتخذ مثالا لها أصحاب السلطة فى تاريخ انجلترا الذين دالت دولتهم بعد أن كانوا أصحاب الحول والطول . ثم ينتقل إلى هؤلاء الذين كان لهم قدم راسخة فى العلم وآل أمرهم إلى الاستشهاد والنسيان . ثم يتحول إلى المجد العسكرى وما انتهى إليه من هلاك ودمار فى ميادين القتال . وأخيراً يعالج التعذيب الذى يعانيه هؤلاء الذين يقطعون فى الهرم والشيخوخة شوطاً بعيداً ، والأخطار التى تصاحب الجمال الجسمى . وينتهى من كل ذلك إلى أن الإنسان لا حول له ولا قوة إلا أن يتولاه الله برحمته .

وفى نفس السنة قام جارك — وقد بلغ وقتئـــذ القمة فى الشئون المسرحية — بتمثيل المأساة الوحيدة التى كان قد ألفها جونسون وهو يدرس فى مدرسته الخاصة بالقرب من ليتشفيلد. ومع أنها لم تكن ناجحة إلا أن جارك — اعترافاً منه بجميل أستاذه — صمم على استمرارها حتى حصل لجونسون من ورائها على ثلاثمائة جنيه . واسم هذه المأساة « ايرين » (Irene) وهى لا تخرج عن كونها سلسلة من الحوار الفلسفى والبلاغى

بين محمد الفاتح سلطان الترك وبعض مرافقيه وبعض أسراه من الإغريق .

وفى سنة ١٧٥٠ بدأ جونسون النشر فى مجلة نصف أسبوعية اسمها « المتجول » (The Rambler) ، واستمر فى نشرها حتى ماتت زوجه سنة ١٧٥٢ بعد أن كتبها كلها — ماعدا خمسة أعداد منها — بنفسه . وكانت هذه المجلة تحتوى موضوعات أخلاقية مختلفة الغرض منها حمل الناس على التعلق بالحكمة والتقوى وعلى الدقة وحسن الاختيار فى التعبير باللغة الانجليزية . وهذه المجلة على جفافها وبعدها عن المشاهد المحسوس كان يتداول منها خمسمائة عدد . ومع أن جونسون كان مشغولا بهذه المجلة لم يمنعه هذا من الاشتراك فى الكتابة إلى المجلات الأخرى بالإضافة إلى عمله الجبار وهو جمع القاموس الكبير للغة الانجليزية الذى كان شغله الشاغل منذ سنة ١٧٤٧ .

وفى سنة ١٧٥٥ بلغ أوج مجده وشهرته بنشره هذا القاموس فى مجلدين من القطع الكبير . والجديد فى هذا القاموس مراعاته للقواعد الآتية :

أولا — أنه اعتبر اللغة الانجليزية الحديثة تبدأ من منتصف القرن السادس عشر فى عهد الملكة « اليزابيث » . فقصر قاموسه على الكلمات التى كانت متداولة منذ ذلك التاريخ إلى عهده .

ثانياً — أنه راعى فى تعريف الكلمات الصعبة أن يكون بعبارات سهلة واضحة غير أنه لم يوفق فى هذا فى كثير من الأحيان فأصبح بعض تعريفاته أشد تعقيداً من الكلمات المعرَّفة حتى صار ذلك موضوعاً للتندر والدعابة .

ثالثاً — أنه عنى بالناحية الاشتقاقية غير أنه لم يوفق فيها تمام التوفيق لأن علم الاشتقاق لم يكن قد بلغ بعد ما بلغه الآن من النمو والازدهار . أما الجديد الفريد فى هذه الناحية فهو عنايته بتبيان المعانى المختلفة فى العصور المتباينة لكل مادة لغوية مستشهداً على ذلك بأمثلة من كلام الكتاب والشعراء .

وفى نفس السنة كتب كثيراً من المقالات أهمها رد على كتاب كان شائعــاً وقتئذ واسمه « بحث حر فى طبيعــة الشر وأصله » لكاتب اسمه «سوم جننز» (Soame Jenyns) . وقــد استند هذا الكتــاب إلى نظرية ليبنتز القائلة بأن هذا العالم خير العوالم الممكنة ، وأن أساسه انسجام جميع عناصره انسجاماً يتمشى مع الحكمة الإلهية . ومن هنا يقف هذا الانسجام حاجزاً منيعاً أمام الشر ، وما قد نظنه شراً لا بد أن يكون خيراً فى النهاية ، غاية الأمر أن الحكمة الإلهية قد اقتضته لسر لا نستطيع إدراكه . وكان الباعث الرئيسى على نشر هذا الكتاب وذيوعه هو حادث أليم حدث فى نفس السنة وهو الزلزال الكبير الذى تصدعت بسببه

مدينة لشبونه ، وقتل فيها ثلثا أهلها ، فتلمس رجال الكنيسة ومعهم هذا المؤلف سبباً خيراً معقولا لحدوث هذا الزلزال الذى ذهب ضحيته هذا العدد العديد من الأبرياء.
واستند جونسون فى رده على هذا الكتاب إلى مسيحية تقليدية ترى أن الحياة بعد خروج آدم من الجنة مرحلة مليئة بالآلام التى يمكن تفسير بعضها وأغلبها لايقبل التفسير، وأنه لا أمل فى الخلاص من هذا الشقاء إلا بالفناء واتصال الروح بالملأ الأعلى . فكان رد جونسون ينطوى على الكثير من الشجاعة ومواجهة الحقيقة وحمل الناس على ألا يخدعوا أنفسهم بأنفسهم .

وفى سنة١٧٥٩ ماتت أم جونسون وهو فى أمس حاجة إلى الإنفاق على دفنها ، فكتب قصة فلسفية اسمها « راسلاس : أمير الحبشة » فى سبع ليال على حد قوله ، وباعها لثلاثة من الناشرين بمائة جنيه استطاع بها أن ينفق على جنازة أمه ويوفى بعض الديون الضئيلة التى كانت قد التزمت بها من قبل . وكانت هذه القصة بمثابة رد على نظرية التفاؤل التى دعا إليها كل من ليبنتز و سوم جننز ، وكان قد بدأ رده فى مقاله عن كتاب سوم جننز . ومن الغريب أنه فى نفس السنة وقبل نشر « راسلاس» بشهرين ظهرت قصة « كانديد » لفولتير. وكان

الغرض منها أيضاً تفنيـــد نظرية التفاؤل الشائعة وقتئذ وإثبات أنه فى حياتنا الحاضرة يتغلب الشر على الخير ، غير أن فولتير فى قصته الفلسفية كان يهدف إلى التشكيك فى وجود إله خير كما كان يدعو إلى السخرية من الدين . أما « راسلاس » ففيها يرمى جونسون إلى أن الحيـــاة الدنيا عبث وزينة وأن أمل الإنسان فى الخلاص هو فى أن يسمو حتى يتصل بالذات الإلهية . فنظرية فولتير نظرية تشكيك فى الإله والدين ، ونظرية جونسون تنطوى على زهد وايمان .

وفى سنة ١٧٦٢ منحته رئاســـة الوزارة معاشاً سنوياً قدره ثلاثمائة جنيه لا لخدمات مستقبلة — كما قال رئيس الوزارة فى خطـــاب المنحة — بل اعترافاً وتقديراً للمركز السامى الذى كان قد بلغه آنئذ . وفى السنة التالية صادق « جيمز بوزويل » (James Boswell) الذى لازمه طيلة حياته مسجلا أحاديثه وآراءه فى خطير الشئون وحقيرها ، والذى خلد ذكره بعـــد وفاته بترجمة رفعته أكثر مما رفعته آثاره إلى السماكين .

وفى ســـنة ١٧٦٥ أخرج جونسون آثار شكسبير بعد تنقيحها والتعليق عليها . وقدم لهذه الطبعة بمقدمة مشهورة ضمنها رأيه فى شكسبير متأثراً إلى حد بعيد بالذوق العام

للقرن الثامن عشر الذى كان يتطلب الاتزان والمنطق فى كل أثر أدبى . ويتلخص رأيه فى أن لشكسبير المزايا الآتية :

أولا — أن شكسبير يسمو بأشخاص مسرحياته من الفرد إلى النوع ، ولهذا تنطبق حالاتها على الكثير من الناس .

ثانياً — يمتدح شكسبير لواقعيته ، إذ ليس فى مسرحياته أبطال : بل لكل شخص فى المسرحية قيمته الفنية ووزنه الفلسفى . ومن مظاهر واقعيته أيضاً أنه لا يلتزم الأسى والحزن فى المأساة كما لا يلتزم الهزل فى الملهاة ، بل يمزج الأمرين معاً فتخرج المأساة أو الملهاة صورة مصغرة من الحياة الواقعية .

ثالثاً — يمتدحه لخلود أسلوبه وإعجازه ، فإنه رغم أن شكسبير كتب فى أواخر القرن السادس عشر كان يتذوق أسلوبه فى القرن الثامن عشر ، كما أنه لم يستطع كاتب أو شاعر أن يسمو إلى درجته فى الأسلوب .

وأما عيوب شكسبير فى نظر جونسون فهى :

أولا — أن مسرحياته لا ترمى إلى غرض أخلاقى تهذيبى ، فهو أحرص على إسعاد جمهوره منه على نصحهم وإرشادهم . وفى هذا الرأى تنعكس قواعد النقد التى كانت شائعة فى القرن الثامن عشر والمتأثرة برأى هوراس الشاعر الناقد الرومانى . وهى أن وظيفة الشاعر أن يصوغ

إيحاءه وتوجيهه للآخرين فى قالب بهيج ممتع ، وأن يضمن إسعاده الناس تهذيبهم وإرشادهم .

ثانياً — أن مسرحياته غير محبوكة الأجزاء ، وفى هذا الرأى أيضاً تنعكس نظريات النقد المتقدمة التى تتطلب فى كل أثر أدبى تماسك أجزائه تماسكاً منطقياً يكاد يكون رياضياً ، كما تتطلب أن يسهم كل عنصر من عناصره فى تحقيق الغرض الذى وضع من أجله ذلك الأثر الأدبى .

ثالثاً — أن شكسبير لا يتقيد بوحدة الزمان أو المكان أو الوقائع ، فهو يطوف فى قصصه حول نصف العالم فى أزمنة متباعدة ، كما أن وقائعه لا تنحصر فى موضوع واحد . ونرى فى هذا كذلك اتجاه القرن الثامن عشر نحو التقيد بالقواعد التى وضعها أرسطو للمسرحية فى كتابه « فن الشعر » .

وأخيراً عاب جونسون على شكسبير غلظته فى حواره الفكاهى ، وكثرة استطراداته فى أخبار رواته ، وغرامه باللعب بالألفاظ إلى حد يمل منه الذوق المتحضر .

ومع أن جونسون ينقد شكسبير ويسرد له هذه العيوب لاينكر عليه أنه العبقرية الفذة فى جميع أدوار الأدب الانجليزى.

وفى السنوات العشر التالية قام جونسون رغم شيخوخته برحلات صحبه فيها « بوزويل » . ومن الغريب أنهما قاما بأغلبها ماشيين . وقد سجل كل منهما مذكراته فى كتاب .

وفى سنة ١٧٧٧ بدأ جونسون آخر مجهود أدبى فى حياته وهو أن يعد موسوعة لأهم الشعراء الانجليز ، وكان قد اقترحه عليه وفد من الوراقين فى لندن . وكان هم جونسون فى هذه الموسوعة أن يقدم فيها لشعر كل شاعر بتاريخ حياة الشاعر ونقد جونسون لشعره . وكان هذا بمثابة تجديد فى النقد ، فكأن جونسون كان يتنبأ بالنقد الرومانتيكى الذى يحاول دائماً أن يربط حياة الشاعر بشعره . وفى سنة ١٧٧٩ حينما انتهى جونسون من إعداد مقدماته قرر الوراقون أن ينشروها مستقلة عن أشعـــار الشعراء تحت اسم « تراجم الشعراء » واستمر نشرها تباعاً بين سنتى ١٧٧٩ و ١٧٨١ . ومع أن غرضه الأصلى من هذه المرسوعة هو تسجيل أشعار الشعراء من عهد تشوسر حتى زمنه إلا أنه بدأ اختياره من شعراء النصف الثانى من القرن السابع عشر بادئاً بأبراهام كاولى (Cowley) .

وبهذا قصر جهده على تراجم اثنين وخمسين شاعراً من بينهم من لا يستحق الذكر فى هذه الموسوعة ، بينما تخطى بعض الشعراء الجديرين بالذكر فيها .

وفى سنة ١٧٨٤ بعد سنتين من مرض عضال وبعد فقدانه أغلب أصدقائه ما عدا بوزويل الصديق الوفى مات جونسون فى الخامسة والسبعين من عمره .

ومع أن جونسون كان يعتبر فريد عصره فإن إنتـــاجه

الفعلى أقل من شهرته . وقد يكون هذا راجعاً إلى السجل الخالد الذى سطره قلم بوزويل فى تاريخ حياته ، غير أن الأدباء والنقاد فى القرن العشرين بدأوا يتخطون ما كتبه بوزويل ، ويتجهون إلى آثار جونسون مباشرة ليتذوقوا أدبه من آثاره بحماسة جديدة .

* * *

وفى ١٣ من يناير سنة ١٧٥٩ علم أن أمه على وشك أن تفارق هذا العالم وكان فى حاجة ماسة إلى نقود ، فاتفق مع أحد الوراقين على أن يؤلف له قصة واقترح أن يسميها « اختيار طريق الحياة » أو « تاريخ ... أمير الحبشة » على أن يدفع له خمسين ومائة جنيه عن الطبعة الأولى وخمسة وعشرين جنيها عن كل طبعة تالية . غير أن بائع الكتب استغل ضيق ذات يده فلم يعطه سوى مائة جنيه . وماتت أمه فى ليتشفيلد وهو مشغول بكتابة قصته فأرسل مقدم أتعابه (عشرين جنيهاً) للإنفاق على جنازتها ودفنها . واستغرق تأليف القصة سبع ليال ، وظهرت فى ١٩ من إبريل سنة ١٧٥٩ .

أما اسم « راسلاس » الذى اشتهرت به القصة بعد وفاة جونسون فهو اسم البطل فيها ، وقد استعاره جونسون من كتاب « رحلة إلى الحبشة » للأب لوبو . ففى صفحة ١٠٢ من ترجمته لهذه الرحلة ذكر اسم « راسيلا كريستوس » وهو قائد السلطان « سجيد » سلطان الأحباش . وفى صفحة

٢٦٣ حاول جونسون تحليل هذا الاسم ذاكرا أن الجزء الأول منه « راس » لقب لرئيس قبيلة فى الحبشة ولكنه لم يعرض لتحليل بقية الاسم . وقد رجعنا إلى الأستاذ الدكتور مراد كامل رئيس قسم الدراسات السامية بكلية الآداب جامعة القاهرة فعلمنا منه أنه من المحتمل أن يكون « راسلاس » تحريف « راس سيلا كريستوس » ، و« راس » فى اللغة الأمهرية تقابل « رأس » فى العربية و « روش » فى العبرية ، ومعناها رأس أو قائد أو أمير . ومعنى « سيلا كريستوس » فى الأمهرية كذلك « لأجل المسيح » أو « صورة المسيح » أو « وجه المسيح » . والذى يتبادر إلى الذهن أن هذه التحليلات لم تخطر ببال جونسون ساعة أن اختار هذا الاسم ، وإن كان قد اختاره لأنه يوحى إلى الذهن بأنه من أصل حبشى ، وأنه يسهل فى الوقت نفسه على اللسان الانجليزى التلفظ به .

وأما اسم « نكايه » أخت « راسلاس » و « بكواه » وصيفتها فيحتمل — فى رأى الدكتور مراد كامل — أن يكونا من الأسماء الحبشية ، وأن يكون الأول مشتقاً من الفعل الحبشى « نكاى » بمعنى نكى ، يقال فى العربية نكى العدو وفى العدو نكاية أى جرحه وقتله ، وأن يكون الاسم الثانى مشتقاً من الفعل الحبشى « بكاى » بمعنى بكى .

ومن طريف ما يرويه لنا الدكتور مراد كامل أن الأسماء

المستكرهة كانت مقصورة على الأشراف من الأحباش وأما الأسماء المستحبة فكانت للعبيد والإماء . وتفسير ذلك يتضح من رواية الرحالة العربى الذى سأل الأحباش عن سر هذه التسميات فأجيب بأن أسماء الأشراف يقصد بها إلحاق الأذى والشر بالأعداء ، وأما أسماء العبيد والإماء فهى للأشراف أنفسهم لأن العبيد والإماء ملك لهم .

وأما إملاك فلعله — جبر أملاك — (أى عبد الرب أو عبد الله) ولا يزال هذا الاسم شائعاً بين الأحباش . ومن المحتمل أن يكون جونسون أراد أن يختصر هذا الاسم فبدل أن يبقى المضاف ويحذف المضاف إليه عكس الآية وأطلق على فيلسوفه « أملاك » (الرب) عن غير قصد وهذا رأى الدكتور مراد كامل أيضاً .

ولم يكن هدف جونسون من قصته أن يصف وصفاً دقيقاً الحياة فى الحبشة والقاهرة وهما مسرح أبطاله لأن علمه بهذين المكانين محدود إلى حد بعيد ، إنما سر اختياره لهذا النوع هو أن القصة الشرقية كانت محبوبة فى القرن الثامن عشر لسببين : أولهما — أنها كانت تعتبر مسرحاً يلجأ إليه خيال القارىء بدون تقيد بالمعقول أو المحتمل . وثانيهما — وهو ما يعنينا فى هذه المناسبة — هو أن القصة الشرقية كانت تصلح قالباً للجدل الفلسفى ، إذ ببعدها عن بيئة القارىء

تسمح له أن يفكر فى الموضوعات بعقل حر بعيد عن الغرض . كما يستطيع كاتب هذه القصة أن ينقد الآراء أو المجتمعات علانية بدون خوف من محاسب أو رقيب . فقصة « راسلاس » ليست سوى جدل فلسفى اجتماعى تنكر فى صورة قصة شرقية ، ولم تكن قصة موضوعة لمجرد اللهو والتسلية . فلا غرو إذا خرجت لهذا السبب ضعيفة السبك غير مثيرة للخيال .

على أن الغرض الأساسى من قصة « راسلاس » هو ماقدمناه من الثورة على روح التفاؤل والديانة التى تتطلب لكل ظاهرة من ظواهرها سببا معقولا ، إذ هى فى الواقع عبارة عن قصة أمير لايشعر بالسعادة فى واد سعيد ، فيهرب منه باحثاً عن السعادة برفقة فيلسوفه وأخت شاركته الحيرة والملل فلا يجدها خارج الوادى بعد أن قطع مساحات شاسعة واختلط بأوساط متباينة فيقرر العودة إلى الوادى كسير الخاطر موفور الحكمة .

ويرجع روح التشاؤم التى تسود قصة « راسلاس » إلى أمرين أحدهما — أن جونسون كتبها فى أشد الظروف بؤساً وحزناً . وثانيهما — أنه كان يحاول تفنيد نظريات فلسفية شائعة فى زمنه فيوضح عبث البحث عن السعادة والنظر إلى الحياة نظرة خيالية ، ويدفع الناس إلى التفكير فى الواقع والتعلق بأهداب الحقيقة .

وقبل أن أختم مقدمتى أذكر كلمة موجزة عن الترجمتين العربيتين اللتين سبقتا هذه الترجمة : إحداهما ترجمة الأستاذ الدكتور لويس عوض، وقد عنى فيها صاحبها بكشف معميات الأصل فوفق فى ذلك أتم التوفيق . ومع هذا ليس من العدل أن نحكم على ترجمة لاتزال خطية ولم ينشرها صاحبها بعد وهى مازالت قابلة للتغيير والتبديل . وثانيتهما — ترجمة الأستاذ سيد أحمد فهمى المطبوعة بمطبعة شركة دار الطباعة المصرية بشارع الدواوين بالقاهرة (سنة ١٩٢٢) ، وعنوانها « راسيلاس أو البحث عن خير مناهج الحياة » ، وقد أفدنا منها أحياناً وإن كانت قد أجهدتنا كثيراً فى مقابلة الترجمة بالأصل فكثيراً ما كان يحلو للأستاذ الوصف فيبالغ فيه مبالغة لاأساس لها فى الأصل. كما أننا قد عثرنا على نصوص فى الأصل ليس لها مقابل فى الترجمة ، على أنه قد خفى على المترجم الكثير من معميات هذا الأصل . فضلا عن أن الأستاذ كان مولعا بحشو أوصافه أحيانا بغريب اللغة من غير مقتض ، ثم يضطر إلى شرح الغريب فى هوامش القصة،وأدى هذا إلى أن أسلوبه لم يسر على مستوى واحد ، فبينما هو يسمو تارة إلى مرتبة العربية الفصحى إذا به يتنزل تارة أخرى إلى درجة العامية الدارجة .

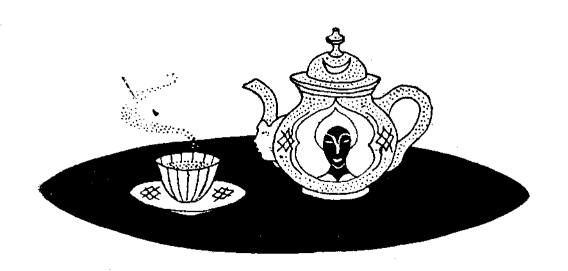
وأما نحن فـــلا ندعى العصمة فى ترجمتنا التى اخترنا

نشرها فى هـــذا الوقت بمناسبة مرور مائتى سنة على ظهور أول طبعة لهذه القصة ، فقد يكشف القراء فيها الكثير من المساوئ ، غير أننا قد توخينا جهدنا أن نسير مع الأصل جنبا إلى جنب حتى فى الطريقة التى اتبعها المؤلف فى التعبير عن معانيه مادامت الترجمة عربية صحيحة مفهومة ، وبذلك وضحت معالم الطريق لمن يريد أن يقابل الترجمة بالأصل . كما أننا قد قصدنا إلى أن يكون أسلوبنا على نمط واحد من السهولة والوضوح فلم نضف إلى تعقيد الأصل أحيانا تعقيداً فى الترجمة .

والله نسأل أن يوفقنا إلى مافيه السداد إنه نعم المولى ونعم النصير . .

١٩ من إبريل سنة ١٩٥٩

مجدى وهبه



الفصل الأول

وصف قصر في واد

أنتم يامن تنصتون إلى همسات الخيال بثقة عمياء ، وتتشبثون بخدع الأمل تشبث الملهوف ، يامن تتوقعون أن الشيخوخة ستحقق مانعلقه على الشباب من آمال ووعود ، وتظنون أن نقص اليوم سيكمله الغد — اعتبروا بحياة راسلاس أمير الحبشة .

كان راسلاس الابن الرابع لذلك الملك العظيم الذى ينبع من إقليمه (النيل) أبو الأنهار فتعم خيراته وهباته ، وتنشر فوق نصف العالم ثمار مصر .

وقد حددت إقامة راسلاس — على ماجرت به العادة المتوارثة لدى ملوك تلك المنطقة الحارة عصراً بعد عصر — فى قصر خاص مع سائر أبناء الأسرة المالكة وبناتها حتى يستدعيه نظام الوراثة لتولى الملك .

أما المكان الذى قدر لإقامة الأمراء الأحباش بمقتضى حكمة القدماء أوسياستهم فقد كان واديا رحبا فى مملكة «أمهره»

تحيط به جبال تشرف قممها على وسط الوادى . وكان الطريق الوحيد للوادى يمر بغار تعلوه صخرة ، وقد ثار حول منشئه جدل طويل هل هو من عمل الطبيعة أو من صنع الإنسان . وأما المخرج من ذلك الغار فكانت تحجبه غابة كثيفة ، وقد أغلق مدخله الذى يقع على الوادى برتاج ضخم من الحديد صنعه الصانع قديما ، ولا يستطيع إنسان ما أن يحركه إلا بمساعدة آلات خاصة .

وكانت تنحدر من الجبال روافد تملأ الوادى كله خضرة وخصوبة ، وتنتهى إلى بحيرة عامرة بكل أنواع السمك ، يتردد عليها جميع أنواع الطيور التى اعتادت غمس أجنحتها فى الماء ، وينصب فيضانها فى جدول يخترق الجبل شمالا فى أخدود مظلم ، فينحدر من صخرة إلى صخرة فى صوت رهيب حتى يتلاشى خريره فى النهاية .

وكانت سفوح الجبـــال مغطاة بالأشجار ، وضفاف الأنهار تزينها الأزهار المختلفة ، كما كانت تحمل كل نسمة من الريح التوابل من الصخر ، وتسقط الثمار كل شهر على الأرض .

وكان يطوف بهذا المكان كل حيوان يرعى الحشائش أو يعيش على الشجيرات ، وحشيا كان أو أليفا ، وهو آمن

من الحيوان الضارى ، وذلك بفضل الجبـــال المحيطة به .
وكانت القطعان من الماشية ترعى فى جانب ، ويثب حيوان
الصيد على الحشائش فى جانب آخر ، وتقفز الماعز المرحة
على الصخور ، ويعبث القرد الماكر بين الأشجار ، ويقيل
الفيل الوقور تحت الظلال . فكانت كل الأنواع المختلفة فى
العالم قد جمعت فى هـــذا المكان الذى أضيفت اليه خيرات
الطبيعة واستبعد منه جميع شرورها .

وكان الوادى الرحب الخصيب يمد سكانه بضرورات
الحياة ، يضاف إلى ذلك جميع مباهجها وأنواع الترف فيها
عند الزيارة السنوية التى كان يقوم بها الملك لأولاده ، فيفتح
الرتاج الحديدى عندئذ على نغم الموسيقى ، ويحتم على كل
من يقطن الوادى أن يقترح كل مامن شأنه أن يجعل العزلة
أكثر سروراً وأملأ بأنواع المرفهات ، وأن يقلل من ملل
الأيام . وكانت الرغبات جميعها تحقق ، ويدعى جلاب اللهو
والسرور لبث المرح فى ذلك العيـــد ، فيوقع فنانو الموسيقى
النغمات المنسجمة ، ويرقص فنانو الرقص أمام الأمراء أملا
فى أن يقضوا حياتهم فى هذا الأسر السعيد . فلم يكن يسمح
بالدخول فيه إلا لمن كانوا يعتقدون أن فنه يضيف جديداً إلى
أنواع الترف . وكان من أثر المظهر المطمئن اللذيذ لهذه العزلة
أن من رآها لأول مرة ود لو بقيت أبدا . ولما كان الخروج

مستحيلا لمن أغلق عليه الرتاج الحديدى لم يكن من السهل التعرف على أثر هذه التجربة الطويلة فى هذه الظروف . وبذلك كانت كل سنة تأتى بجيل جـــديدة لجلب البهجة وبمتنافسين جدد لهذا المعتقل .

وكان القصر على ربوة تعلو سطح البحيرة بثلاثين خطوة تقريبا ، وكان مقسما إلى ميادين وأفنية كثيرة ، كل منها يتناسب فى العظمة مع منزلة الشخص الذى بنى من أجله ، وكانت الأسطح مصنوعة على شكل أقبية من الحجر الضخم يلتصق بعضها ببعض بالأسمنت ، وتزداد متانة على الأيام . وقد استمرت المبانى قائمة من قرن إلى قرن تسخر من الأمطار والعواصف الاستوائية فى مواسمها دون حاجة للإصـــلاح والترميم .

وبلغت هذه الدار من السعة حدا لم يستطع معه أى شخص أن يتعرف على نواحيها المختلفة سوى البعض من قدامى الضباط الذين كانوا يتوارثون أسرار المكان ، فكانت مبنية بنظام كأن الشك نفسه قد أملى تصميمه ، فلكل حجرة ممران أحدهما معروف والآخر سرى ، ولكل ميدان اتصال بغيره إما من الطبقات العليا فى ممرات خاصة ، وإما من سراديب تحت الأرض بين الغرف السفلى . وكان الكثير من الأعمـــدة

أجوف على غير انتظار ، وقد أودعت فيها أجيال طويلة من الملوك كنوزهم ثم ســـدوا الفتحة برخام لايحرك إلا فى الضرورات القصوى للدولة . أما السجل الذى سجلت به هــذه الكنوز فكان مخفيا فى برج لايدخله غير الملك نفسه بصحبة ولى عهده .



الفصل الثانى

راسلاس غير قانع بالوادى السعيد

فى ذلك المكان كان يعيش أبناء الحبشة وبناتها لايعرفون غير التنقل بين الدعة والسرور مصحوبين بكل من كانت له كفاية خاصة فى إدخال البهجة على النفوس ، وممتعين بكل مايمكن أن تتمتع به الحواس ، وكانوا يتنقلون بين الرياض الفيحاء ، وينامون فى حصن الأمان ، ويستعمل كل ضرب من ضروب الفنون ليزين لهم ماهم فيه من أحوال . فالحكماء الذين كانوا يقومون بتعليمهم لم يحدثوهم عن شيء سوى متاعب الحياة العامة ، ووصفوا كل ما وراء الجبال بأنه مناطق للمصائب يسودها دائماً الشقاق ، ويفترس فيها الإنسان الإنسان .

وليزداد تقديرهم لما هم فيه من سعادة كانوا ينشدون كل يوم أغانى موضوعها « الوادى السعيد »، وتثار رغباتهم بما يسردون عليهم من أنواع المتع المختلفة . فكان موضوع كل ساعة من فجر اليوم إلى مسائه البهجة والسرور .

وكثيراً ما كانت تنجح هذه الأساليب فلم يرغب إلا القليل من الأمراء فى توسيع حدودهم ، بل كانوا يقضون حياتهم معتقدين تمام الاعتقاد أنهم حصلوا على كل مايمكن أن تهبه الصنعة أو الطبيعة ، كما كانوا يشفقون على من لفظهم القدر من مقام السكينة هذا ضحية للمصادفة وعبيداً للبؤس .

وهكذا كانوا يستيقظون نهاراً ، وينامون ليلا مسرورين بعضهم مع بعض ومع أنفسهم . كلهم ماعدا راسلاس الذى بدأ فى السنة السادسة والعشرين من عمره يعرض عن ملذاتهم ، وينسحب من مجتمعاتهم ، ويجد البهجة فى سراه المنفرد وتأملاته الصامتة . وكثيراً ما كان يجلس إلى الموائد مليئة بكل المشهيات وينسى أن يتذوق شيئاً مما أمامه ، وينهض فجأة وسط الأغانى ، ويسرع إلى عزلته بعيدا عن صوت الموسيقى . لاحظ جلساؤه هذا التغير ، وحاولوا أن يعيدوا إليه حبه للبهجة والسرور ، فكان يتجاهل حركاتهم الفضولية ويرفض دعوتهم ، ويقضى يوما بعد يوم على ضفاف الروافد تظلها الأشجار حيث كان ينصت تارة لتغريد الطيور فى الأفنان ، ويرقب تارة أخرى الأسماك تعبث فى الجدول ، ثم يرمى ببصره إلى المراعى والجبال العامرة بالحيوان ، بعضه يرعى الحشائش ، والبعض الآخر يقيل بين الشجيرات .

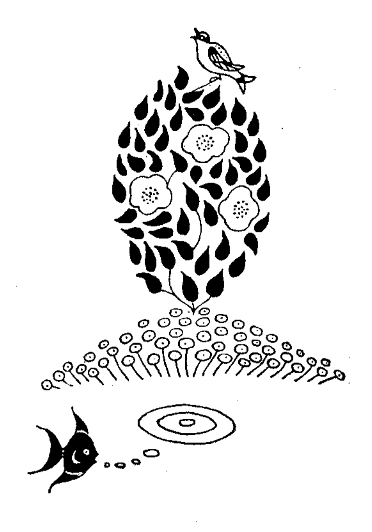
لفتت هذه الغرابة فى مزاجه إليه الأنظار ، فتبعه خفية حكيم كان راسلاس معجبـــا بحديثه من قبل أملا فى أن يكشف سر قلقه . أما راسلاس فقد أطال النظر حينا إلى الماعز التى كانت ترعى بين الصخور ، وبدأ يوازن بين حالها وحاله غير شاعر أن أحداً على مقربة منه .

فقال : « ما الذى يميز الإنسان عن غيره من سائر المخلوقات الحيوانية ؟ كل حيوان يهيم بجانبى له من الحاجات الجسمية مالى . فهو إذا جاع رعى الحشائش ، وإذا ظمىء ارتوى من الجدول ، فيخف جوعه ويطفأ ظموءه فيقنع وينام ، ثم ينهض ثانية ويجوع فيأكل من جديد فيرتاح . أما أنا فجائع مثله ، وظمآن مثله ، ولكن حينما يزول الجوع ويطفأ الظمأ لا أشعر بالراحة . وأنا مثله أتألم للخلو والجوع ، ولكنى لست مثله قانعا بالامتلاء والشبع . والساعة المتوسطة بين الخلو والامتلاء مملة ومظلمة . وأتطلع إلى الجوع لعله يثير انتباهى مرة ثانية . فالطير يلتقط العناب أو الحب فيطير إلى الغابات حيث يجلس فى سعادة ظاهرة على الأغصان ، ويقضى حياته فى تغريد سلسلة رتيبة من الأنغام . وأنا أيضا استطيع أن أدعو العواد والمغنى ، ولكن

النغم الذى أطربنى بالأمس يملنى اليوم ، وسيكون أكثر إملالا غداً . وإنى لا أرى فى نفسى قوة للإدراك ليست مشبعة بسرورها الحق ، ومع ذلك لاأشعر أنا نفسى بالسرور ، فلا بد أن للإنسان حاسة كامنة لايشبعها هذا المكان ، أوأن له بعض رغبات ليست لها صلة بالحاسة ، ويجب أن تشبع قبل أن يكون الإنسان سعيداً » .

عندئذ رفع رأسه ، ولما رأى القمر يتألق اتجه نحو القصر . وعندما مر بالحقول ، ورأى صنوف الحيوان حوله قال : « أنتم سعداء ، ولستم فى حاجة إلى أن تحسدونى على سيرى هكذا بينكم مثقلا بأعباء نفسى ، كما أننى أيتها الكائنات الرقيقة لاأحسدكم ، فإن سعادتكم ليست مما يستطيع أن يتمتع به الإنسان . إننى أشكو هموماً أنتم خالون منها ، وأخشى الألم حين لا أشعر به ، وأحياناً أقشعر لذكر شرور ماضية وأرتعد لشرور أتوقعها ، ولا أستطيع أن أشك فى أن العدالة الإلهية قد وازنت بين مآس معينة ومتع خاصة ، فوهبتنا من السعادة التى ننعم بها بقدر ما أذاقتنا من الشقاء الذى نقاسيه » .

وبمثل هذه التأملات كان الأمير يسرى عن نفسه فى طريق العودة ناطقا إياها بصوت حزين ، غير أن وجهه كانت تلوح عليه أمارات الرضا بحدة ذكائه ، والتعزى عن متاعب الحياة بيقظته لرقة شعوره وبلاغة التعبير التى يرثى بها لنفسه فاندمج بابتهاج فى مرفهات المساء ، وسر الجميع حينما وجدوه منشرح الصدر .



الفصل الثالث

حاجات من لا يحتاج شيئاً

وفى اليوم التالى بعد أن تصور معلمه الشيخ أنه قد وقف على علته العقلية أمل أن يبرئه بالنصح والوعظ ، ووجد فى انتهاز فرصة للحديث لم يرغب الأمير رغبة صادقة فى إتاحتها له ، لأنه كان يعتبره مجهد العقل والفكر ، ثم قال : « لماذا يتدخل هذا الرجل فى شئونى ؟ ألا يباح لى أن أنسى هــذه المحاضرات التى سرتنى فقط حينما كانت جديدة ، والتى يجب أن تنسى لتصير جديدة مرة أخرى ؟ » . ثم توجه إلى الغابة وأعد نفسه لتأملاته المعتادة ، وحينما أدرك — قبل أن تستقر أفكاره — أن مطارده بجانبه دفعه نفاد صبره أول الأمر إلى أن يسرع فى الابتعاد عنه ، غير أنه لم يرد أن يغضب رجلا كان يوماً ما يجله ومازال يحبه ، لذلك دعاه للجلوس معه على ضفة الجدول .

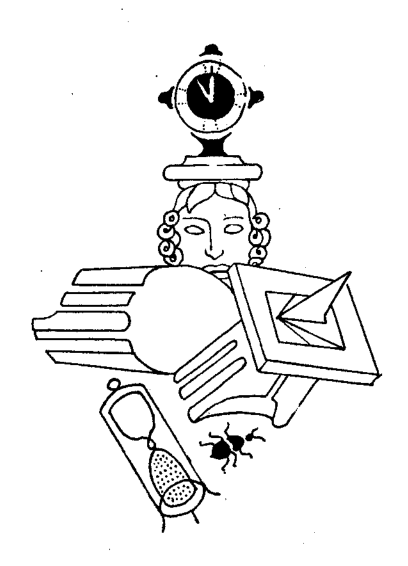
ولما رأى الشيخ هذا النحو من التشجيع شرع يرثى للتغير الذى لوحظ أخيراً على الأمير ، ويتساءل لماذا يجتنب غالباً مباهج القصر ، ويجنح إلى حياة الوحدة والسكون . فأجاب الأمير : « إننى أفر من السرور لأنه لم يعد يطربنى ، وأحيا

حياة العزلة لأننى بائس ، ولا أريد أن أكدر بحضورى سعادة الآخرين . » . قال الحكيم : « أنت يا سيدى أول من شكا من البؤس فى الوادى السعيد ، وإنى آمل أن أقنعك بأن شكواك لا أساس لها من الحقيقة . أنت هنا تحصل تماماً على كل ما يمكن أن يمنحه ملك الحبشة ، ولا يوجد هنا عمل يثقل الكاهل ولا خطر نخشاه ، ومع ذلك تجد هنا رهن إشارتك كل ما يجلبه العمل من خيرات وما تنتجه المخاطرة من ثمار . انظر حولك وخبرنى أى حاجة لك لم تقض. وإذا كنت لا تحتاج شيئاً فكيف لا تكون سعيداً ؟ ».

فأجاب الأمير : « إن سبب شكواى هو أننى لا أحتاج شيئاً ، أو هو أننى لا أعرف ماذا أحتاج . فلو كانت لى أية حاجة معروفة لكانت لى رغبة معينة ، ولأثارت تلك الرغبة مجهوداً ، وحينئذ لا أتحرق حسرة كلما أرى الشمس تتحرك بهذه الدرجة من البطء نحو الجبل الغربى ، أو لا أرتجف حينما ينبلج وجه الصباح . أما النوم فلم يعد يخفينى عن نفسى . إننى حينما أرى صغار الماعز والخراف يطارد بعضها بعضاً أتصور أننى سأكون سعيداً لو أن لى شيئاً أهدف إليه ، ولكن لأننى أحصل على كل ما يمكن أن أحتاج إليه أجد الأيام والساعات متشابهة تماماً ، إلا أن الأيام والساعات الأخيرة أشد إملالا من الأولى . دع تجاربك تنبئنى كيف

يمكن أن يبدو اليوم الآن قصيراً كما كنت أتصوره فى طفولتى وقت أن كانت الطبيعة ترفل فى ثوب قشيب ، وحين كانت كل لحظة ترينى ما لم ألاحظه مطلقاً من قبل : لقد تمتعت أكثر من اللازم فهات لى شيئاً أفتقده » .

دهش الشيخ لهذا النوع الجديد من الهم ، ولم يدر بماذا يجيب ، ومع ذلك لم يرضه السكوت ، فقال : « سيدى ! لو رأيت ألوان البؤس فى العالم لقدرت حالتك الراهنة خير تقدير » . فأجاب الأمير : « الآن قد أعطيتنى شيئاً أنشده . سأتطلع بلهفة إلى أن أرى ألوان البؤس فى العالم ما دامت رؤيتها ضرورية للشعور بالسعادة » .



الفصل الرابع

الأمير يستمر فى حزنه وتأمله

وهنا أعلن صوت الموسيقى حلول وقت الطعـــام ، فاختتمت المحـــادثة ، وذهب الشيخ غير راض مطلقاً ، وذلك لأنه وجد أن حججه قد انتهت إلى الخاتمة الوحيدة التى أراد أن يتحاشاها ، ولكن عند أفول نجم الحياة لا يبقى الخجل ولا الحزن طويلا إما لأننا نحتمل بسهولة ما اعتدنا أن نحتمله ، وإما لأننا أقل اعتباراً للآخرين حينما نجد أنفسنا فى الشيخوخة معتبرين أقل ، وإما لأننا لا نعبأ كثيراً بالهموم التى نعلم أن يد الموت على وشك أن تضع حداً لها .

ولم يستطع الأمير الذى امتدت نظراته إلى أفق أوسع أن يسرع فى تسكين انفعالاته ، فقد كان يخشى من قبل طول الحياة التى وعدته الطبيعة بها لأنه ظن أنه فى الزمن الطويل لابد أن يحتمل الكثير . أما الآن فإنه ابتهج بشبابه لأن الكثير يمكن أن يتم فى السنوات العديدة .

هذا الشعاع الأول من الأمل — الذى شق طريقه إلى

عقله — أعاد نضرة الشباب إلى خديه ، وضاعف بريق عينيه ، فكان يشتعل رغبة لعمل أى شيء ، مع أنه لم تتضح أمامه بعد الغاية والوسيلة .

فلم يعد الآن مكتئباً ، ولا مجتنباً حياة الجماعة ، بل تظاهر بانشغاله بجميع الخطط الخاصة بالترفيه والتسلية ، وحاول أن يجعل الآخرين مسرورين بالحالة التى كان هو نفسه يشكو منها ، وذلك لأنه كان يعتبر نفسه مالكاً لرصيد سرى من السعادة يتمتع به فقط حينما يخفيه عن الغير . ومهما كثرت المسرات واستمرت لا يمكن أن تشغل جميع فراغ الحياة . فكانت هناك ساعات كثيرة بالليل والنهار يقضيها فى تفكير منعزل بعيد عن ملاحظة الآخرين . فخفف عنه عبء الحياة كثيراً ، وذهب برغبة صادقة إلى المجتمعات لأنه ظن أن كثرة حضوره ضرورية لتحقق أغراضه ، ثم أوى مسروراً إلى مخدعه الخاص لأنه قد عثر وقتئذ على مادة للتفكير .

وكانت تسليته الرئيسية أن يصور لنفسه العالم الذى لم يره أبداً ، ويضع نفسه فى حالات متباينة ، ويقحمها فى مشاكل خيالية ، وينشغل فى مخاطرات بمناطق موحشة ، غير أن ميله للخير أنهى دائماً مشروعاته بخلاص من ضائقة ، وكشف لخديعة ، وهزيمة لظلم ، ونشر لسعادة .

على هذا النحو قضى راسلاس عشرين شهراً من حياته ، وشغل نفسه إلى مدى بعيد بمشاغل خيالية حتّى إنه نسى عزلته الحقيقية ، وفاته — أثناء استعداده المستمر للمواقف المختلفة فى حياة المجتمعات الإنسانية — أن يفكر فى الوسيلة التى يندمج بها مع الناس .

وبينما كان جالساً ذات يوم على ضفة الجدول صور لنفسه عذراء يتيمة سلبها محب خائن نصيبها الضئيل وهى تتبعه صائحة ليرد لها ما سلب ويعوضها عنه . وانطبعت هذه الصورة فى ذهنه بدرجة من القوة جعلته يخف لحماية الفتاة . فجرى إلى الأمام ليقبض على السالب بكل ما تتطلبه المطاردة الحقيقية من الجد فى طلبه ، والخوف بالطبع يجعل هروب المذنب أسرع ، لذلك لم يستطع راسلاس بكل ما بذل من مجهود أن يلحق بالهارب ، ولكنــــه قرر أن يجهد بالصبر والمثابرة من لم يستطع التغلب عليه فى السرعة ، فاستمر فى سرعته حتّى أوقف جريه سفح الجبل .

وهنا تذكر نفسه فابتسم لسرعة انفعاله من غير جدوى ،

ثم رفع عينيه إلى الجبل وقال : « هذا هو العقبة الكأداء التى تحول دون التمتع بالمسرات وتحقيق ما تقتضيه الفضيلة

فى الوقت نفسه . كم مرة طارت آمالى ورغباتى خلف حدود حياتى هذه التى لم أحاول قط التغلب عليها ؟ » .

وجلس يتأمل تحت تأثير هذه الفكرة ، وتذكر أنه منذ قرر أن يهرب من أسره مرت الشمس فوقه مرتين فى دورتها السنوية [1] ، وشعر بدرجة من الأسف لم يعهدها أبداً من قبل ، وفكر فى الكثير الذى كان من الممكن أن ينجز فى الوقت الذى انقضى ولم يخلف شيئاً حقيقياً وراءه . ثم وازن بين العشرين شهراً وعمر الإنسان فقال : « لا ينبغى أن يعد من الحياة الطفولة الجاهلة ولا الشيخوخة البلهاء ، فنحن موجودون قبل أن نستطيع التفكير بزمن طويل ، وسرعان ما تنفصل عنا القدرة على النشاط . ومن المعقول أن يعد العصر الحقيقى للوجود الإنسانى أربعين عاماً ، أضعت منها فى التأمل الجزء الرابع والعشرين . أما ما فقدته فقد كان مؤكداً لأننى كنت قد حصلت عليه ، ولكن من يضمن لى أن أحيا العشرين شهراً القادمة ؟ » .

ووخزه شعوره بحماقته وخزاً عميقاً ، ولم يستطع الرضا عن نفسه إلا بعد زمن طويل . ثم قال : « لقد أضاعت جناية أسلافى أو حماقتهم وتقاليد وطنى غير المعقولة بقية وقتى . إننى أشمئز لذكراها ، ومع ذلك لا أندم عليها لأننى لا أتحمل تبعتها ،

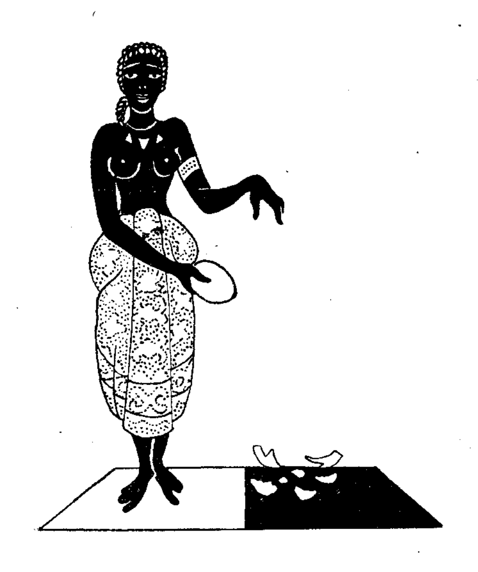
(١) هذا حسب الفلك البطلمسى — المترجمان .

غير أن الشهور التي انقضت منذ شق الضوء الجديد طريقه إلى نفسي ومنذ كونت خطة للسرور المعقول قد أضعتها بخطئي أنا . لقد فقدت ذلك الذي لا يعوض أبداً . كنت أرى الشمس تشرق ثم تغرب عشرين شهراً وأنا أنظر إلى ضوء السماء نظرة الخامل . حينئذ تركت الطيور عش أمها ، ولاذت بالغابات والسموات ، وهجر صغار الماعز الثدى وتعلمت تدريجاً كيف تتسلق الصخور في طلب زاد مستقل. ولم أتقدم أنا ، بل لا أزال جاهلا لا حول لى ولا قوة . وقد اتعظت بأكثر من عشرين تغيراً للقمر عن مد الحياة وجزرها . وعاب على الجدول الذى ينساب أمام قدمى خمولى فجلست غارقاً فى ولائم من الترف العقلى غير معتبر بكل من دروس الأرض وتعليمات الكواكب . لقد ولت عشرون شهراً فمن يعيدها إلى؟»

واستبدت بعقله هذه التأملات المليئة بالندم ، وقضى أربعة أشهر أخرى يقرر فيها ألا يضيع أى زمن آخر فى قرارات خاملة ، وأيقظه بعنف سماع فتاة تقول وقد كسرت فنجاناً من الخزف : « ما لا يمكن إصلاحه لا ينبغى الندم عليه » .

لقد كان هذا واضحاً ، لذا عنف راسلاس نفسه على أنه لم يكشفه ، وعلى أنه لم يعرف أو لم يفكر فى أن كثيراً

من الحكم المفيدة نحصل عليه بالمصادفة ، وكيف أنه يغلب أن العقل — حينما تسرع به الحماسة إلى الآراء البعيدة — يهمل الحقائق الساذجة المبسوطة أمامه . فندم قليلا من الساعات لندمه ، ومن ذلك الوقت حصر كل قواه العقلية فى وسيلة الهرب من الوادى السعيد .



الفصل الخامس

الأمير يفكر فى هربه

لقد وجد الآن أن ما ظنه سهل التنفيذ إلى حد كبير من العسير أن ينفذ ، وذلك حينما نظر حوله ورأى نفسه محصوراً بين حصون الطبيعة التى لم يتغلب عليها بعد ، وبين الرتاج الذى ما اجتازه أحد مرة واستطاع العودة منه . لقد نفد صبره فى ذلك الوقت فكان كنسر فى قفص ، وقضى الأسابيع فى تسلق الجبال علّه يرى منفذاً أخفته الشجيرات ، غير أنه وجد أنه لا يستطيع الوصول إلى أية قمة من القمم لإمعانها فى الارتفاع . كما أنه يئس من فتح الرتاج الحديدى لأنه لم يكن محصناً بكل ما تملك الصنعة من قوة فقط بل كان كذلك تحت مراقبة مستمرة من حراس متتابعين ، كما كان بحكم موقعه عرضة للملاحظة دائمة من جميع السكان .

ثم فحص الغار الذى تتدفق خلاله مياه البحيرة ، وبعد أن نظر فترة إلى أسفل ، وقد سطعت الشمس عل

فتحته ، وجده مملوءاً بقطع من الصخور التى سمحت للمياه أن تنصب خلال ممرات كثيرة ضيقة ، وإن كانت لا تسمح بمرور جسم صلب . فعاد كاسف البال ، شبه يائس ، ولكنه بعــد أن عرف وقتئذ نعمة الأمل قرر ألا ييأس أبداً .

قضى فى هذه البحوث غير المثمرة عشرة شهور ، غير أنها مرت فى بهجة وانشراح ،فكان ينهض فى الصباح بأمل جديد ، وفى المساء يطرى جهوده ، وينام بالليل نوماً عميقاً هادئاً بعد أن أضناه التعب . لقد صادف آلافاً من أنواع التسلية صرفته عن عمله ، ونوعت أفكاره ، فتبين الغرائز المختلفة للحيوان ، كما وقف على خواص النبات ، ووجد المكان مليئاً بالعجائب التى عزم أن يسرى عن نفسه بإنعام النظر إليها ، وذلك فى حالة ما إذا استحال عليه الهرب . وابتهج لأن جهوده — وإن كانت لا تعتبر ناجحة إلى ذلك الوقت — قد أمدته بمصــدر لبحوث لا ينضب معينه .

ولكن حب استطلاعه الأصلى لم ينته بعــد فقرر أن يحصل على طائفة من الحقائق عن سلوك الناس ، واستمرت رغبته هذه ، ولكن أمله ضعف فلم يعد يفحص جدران

سجنه ، وأقل البحث بجهود جديدة عن منافذ تحقق أنه لا يمكن أن تكون موجودة . ومع ذلك صمم أن يضع خطته دائماً نصب عينيه ، ويتعلق بكل وسيلة صالحة يمكن أن يجود بها الزمن .



الفصل السادس

بحث فى فن الطيران

وكان بين الصنـــاع الذين اجتذبوا إلى الوادى السعيد لإراحة سكانه وإسعادهم رجل اشتهر بحذقه معرفة القوى الميكانيكية ، وابتكاره عدداً كبيراً من الآلات النافعة المسلية . لقد دفع الماء إلى قلعة بوساطة ساقية تحرك بقوة التيار المائى ، ومن القلعة وزع الماء إلى جميع أقسام القصر . وقد أقام سقيفة فى الحديقة ، وجعل الماء حولها دائماً رطباً بوساطة رذاذ اصطناعى . وكانت إحدى الخمائل الخاصة بالسيدات تهوى بمراوح تحرك دائماً بقوة تدفق الجدول الذى يمر خلال الخميلة ، ووضع على مسافة مناسبة آلات للموسيقى الحالمة يدار بعضها بقوة دفع الرياح ، والبعض بقوة التيار المائى .

كان راسلاس يزور هذا الصانع أحياناً لأنه كان مشغوفاً بكل نوع من أنواع المعرفة ، ومتصوراً أنه سيأتى الوقت الذى يستفيد فيه من كل معلوماته فى العالم الخارجى . وجاء يوماً ليسرى عن نفسه بأسلوبه المعتاد فوجد السيد مشغولا بصنع عجلة شراعية ، ورأى أن الخطة عملية فوق سطح

مستو ، فرجا إتمامها بعد أن عبر له عن تقديره العظيم . سر الصانع بعظم تقدير الأمير له ، وقرر أن يعمل على أن يكون موضع تقدير أسمى ، وقال : « سيدى ! لم تر سوى جزء يسير مما تستطيع العلوم الآلية أن تحققه . لقد فكرت طويلا فى أن يستبدل الإنسان بوسائل النقل البطيئة من سفن وعجلات التنقل الأسرع بالأجنحة ، وأن حقول الفضاء مبسوطة لمن يريد أن يتعرف كنهها وأسرارها ، وأنه لا يحملنا على القناعة بالزحف فوق الأرض سوى الجهل والكسل » .

أشعلت هذه الإشارة رغبة الأمير مرة ثانية فى اجتياز الجبال . وبعد أن رأى ما أتمه صانع الآلات كان ميالا للاعتقاد أنه يستطيع أن يبدع خيراً من ذلك ، لكنه قرر أن يتعمق فى بحثه واستطلاعه حتى لا يصدم بخيبة أمل إذا تبين أن هذا الصانع على خلاف ذلك . فقال للصانع : « إننى أخشى أن خيالك يتغلب على مهارتك ، وأنك تخبرنى الآن بما ترغب لا بما تعرف ، فكل حيوان له عنصره الخاص به : فالطير له الهواء ، والإنسان ، مع غيره من أنواع الحيوان ، له الأرض » . فأجاب صانع الآلات : « إن الأسماك ميدانها الماء ومع ذلك تستطيع العجماوات أن تستحم فيه بالسليقة والناس بالاكتساب والتعلم . ومن استطاع العوم لا ينبغى أن ييأس من الطيران ، فما العوم سوى طيران فى

سائل أشد كثافة ، وما الطيران غير عوم فى مادة أخف كثافة . وكل ما نحتاج إليه هو أن نوازن بين قدرتنا على المقاومة والأنواع المختلفة لكثافة المادة التى نخترقها . وسيصعد بك الهواء حتماً إلى أعلى متى استطعت أن تجدد أى دفع فيه قبل عودته بسبب الضغط » .

قال الأمير : « لكن رياضة العوم مجهدة جداً ، وأقوى الأعضاء تجهد بسرعة ، وأخشى أن يكون الطيران أشد إجهاداً ، فلا تصبح الأجنحة ذات فائدة عظيمة ما لم نستطع أن نطير أبعد مما نستطيع أن نعوم » .

قال الصانع : « إن المجهود العظيم يكون فى بدء الارتفاع من الأرض كما نراه فى الطيور المنزلية ذات الوزن الثقيل ، لكن كلما صعدنا قلت تدريجاً جاذبية الأرض وثقل الجسم حتى نصل إلى منطقة يطفو فيها الإنسان فى الهواء من غير أن يخشى السقوط ، ولا يطلب منه بذل أى مجهود سوى أن يتحرك إلى الأمام ، وأخف دفع كفيل بتحقيق هـذه الغاية . وأنت يا سيدى — يا من بلغ حب استطلاعه شأواً بعيداً — تدرك بسهولة إلى أى حد من السعادة يصبح فيلسوف مزود بالأجنحة ومحلق فى السماء حينما يرى الأرض وجميع سكانها يموجون تحته ويعرضون عليه متتابعين — حسب حركة الأرض اليومية — جميع الممالك الواقعة فى نفس المدار الذى

يحلق فوقه . وكيف تكون تسلية الناظر المعلق فى الهواء عندما يرى المنظر المتحرك للأرض والمحيط والمدن والصحارى ، ويلقى نظرة شاملة ، وهو آمن مطمئن ، إلى أسواق التجارة ، وميادين الحرب ، والجبال يغزوها البرابرة ، والمناطق المثمرة مغتبطة بغزارة الخيرات ، وسعيدة بالسلام . ما أسهل عندئذ أن نتتبع النيل من منبعه إلى مصبه ، ونحلق فوق المناطق النائية ، ونختبر سطح الطبيعة من أدنى الأرض إلى أقصاها » .

قال الأمير : « كل هذا حقيق بأن يرغب فيه ، ولكننى أخشى ألا يستطيع إنسان أن يتنفس فى مناطق التأمل والسكون هذه . لقد بلغنى أن التنفس صعب فوق شواهق الجبال ، فضلا عن أنه من السهل جداً أن تسقط من هذه المهاوى على الرغم من أنها عالية إلى درجة تجعل الهواء أخف كثافة إلى حد كبير . ولهذا أخشى أن يكون خطر الهبوط المفاجئ متوقعاً من أى ارتفاع يستطيع الإنسان أن يعيش فيه » .

أجاب الصانع : « لو تحتم على الإنسان أن يقدم فى تفكيره جميع العقبات المحتملة وكيفية التغلب عليها ما حاول أحد شيئاً مطلقاً . فإذا عضدت مشروعى حاولت الطيران الأول على مسئوليتى الخاصة . لقد فكرت فى تكوين جميع أنواع الحيوان الطائر ، ووجدت أن أجنحة الخفاش أنسب

الأجنحة لشكل الإنسان لما فيها من طيات متصلة . فعلى هذا المثال سأبدأ عملى غداً ، وأتوقع فى مدى سنة أن أحلق فى الجو بعيداً عن حقد الإنسان ومطاردته . غير أننى سأعمل على شريطة ألا يكشف سر هذا الفن ، وأنك لن تطلب منى أن أصنع أجنحة لغيرنا من الناس » .

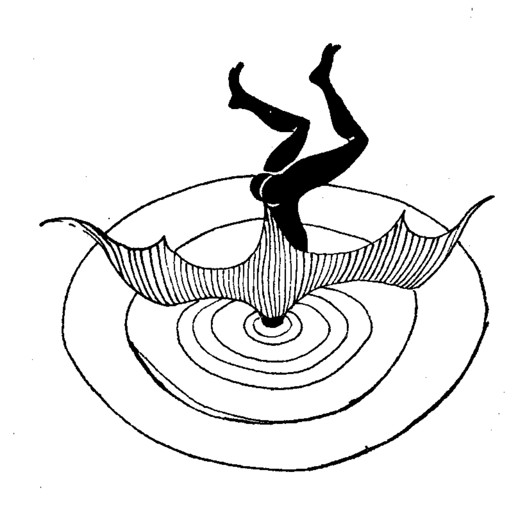
قال راسلاس : « لماذا تريد أن تضن على الآخرين بمثل هذه الميزة العظيمة ؟ ينبغى أن تستغل جميع الكفايات فى سبيل المصلحة العامة ، وكل إنسان مدين بالكثير لغيره من الناس ، ويلزمه أن يرد لهم ما أولوه من عطف » .

فرد الصانع : « لو كان كل الرجال فضلاء لبادرت إلى تعليمهم كيف يطيرون ، ولكن أى شىء يحمى الخيرين لو طاب للأشرار أن يغزوهم من السماء ؟ حينئذ لن تستطيع الحصون ولا الجبال ولا البحار أن تحمى أحداً من جيش يسبح بين السحب . وقد يحلق المتوحشون الشماليون فى الجو ، ثم يهبطون بعنف لا يقاوم على حاضرة منطقة مثمرة تموج تحتهم ، وحتى هذا الوادى ، موطن الأمراء ومقر السعادة ، قد يصـــاب بهبوط مفاجئ لبعض الشعوب العراة الذين ينتشرون على ساحل البحر الجنوبى » .

وعد الأمير بكتمان الأمر ، وانتظر التنفيذ غير فاقد الأمل كله فى النجاح ، وتردد على العمل من حين لآخر ،

ولاحظ سيره وتقدمه ، وشاهد الكثير من التدبيرات الفنية الماهرة لتيسير الحركة ووصل خفة الوزن بالقوة . وكان الصانع يزداد ثقة على مر الأيام فى أنه سيخلف وراءه البزاة والنسور ، وقد تمكنت عدوى ثقته من الأمير .

أعدت الأجنحة فى مدى سنة ، وظهر الصانع ذات صباح معين مستعداً للطيران من ربوة صغيرة . فحرك جناحيه فترة ليستجمع الهواء ، ثم قفز من موقفه ؛ وسرعان ما هوى فى البحيرة . والجناحان اللذان لم يسعفانه فى الهواء حملاه فى الماء . فجذبه الأمير نصف ميت من الرعب والهم



الفصل السابع

الأمير يجد عالماً من العلماء

لم يتأثر الأمير تأثراً كبيراً نتيجـــة لهذه النكبة لأنه قد منى نفسه بحظ أسعد ، إذ لم تكن أمامه وسيلة أخرى للهروب من المأزق سوى هذه . ولم يزل مصمماً على أن يغادر الوادى السعيد فى أول فرصة تسنح له .

وصدئ ذهنه ، وأصبح فاقد الأمل فى الوصول إلى العالم ، وافترسه السخط تدريجا رغم كل محاولاته لرفع روحه المعنوية ، وعادت أفكاره تغوص فى خضم من الهم لأن الأمطار — وهى موسمية فى تلك البلاد — حالت بينه وبين التجول فى الغابات .

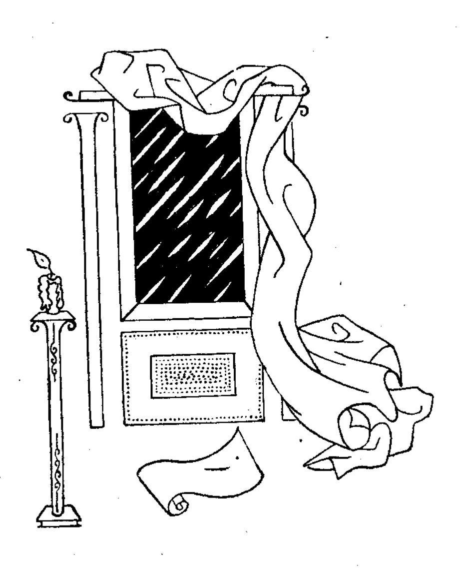
فاستمرت الأمطار بغزارة وعنف لم يعهدا من قبـــل ، وتقطعب السحب فوق الجبال المحيطة ، وانحدرت المياه المتدفقة إلى السهل من كل جانب حتى بلغ الغار حداً من الضيق لم يسمح بمرور الميـــاه منه ، وفاضت البحيرة وغمرت الشواطئ ، وأصبح سطح السهل كله مغطى بالسيول

الجارفة ، وصار كل ما تستطيع العين أن تتبينه من معالم هو الربوة التى أقيم عليها القصر وبعض المرتفعات الأخرى . وهجرت القطعان المراعى ، واعتصمت الأنواع المختلفة من الحيوان المفترس وغيره بالجبال .

وقصرت السيول تسلية الأمراء على اللهو المنزلى ، واستولت على مشاعر الأمير بصفة خاصة القصيدة التى كان قد أنشدها شاعر يدعى « إملاك » فى حالات الإنسان المختلفة . فاستدعى الشاعر للحضور إلى مخدعه لكى ينشده شعره مرة ثانية . وبعد أن أفاض معه فى الحديث أسعده أن يعثر على الرجل الذى يعرف الحياة حق المعرفة ، ويستطيع أن يصور مشاهدها خير تصوير. فسأل آلافاً من الأسئلة عن أمور تعتبر عادية بالنسبة لجميع النـــاس إلا أنه قد حرم معرفتها بسبب حبسه فى القصر ، وأشفق الشاعر عليه لجهله غير أنه شجعه على بحثه وزوده كل يوم بالطريف من المعلومات ، ولهذا أسف الأمير على الوقت الذى لابد أن يقضيه فى النوم ، وتطلع إلى الصبـــاح حتى يتجدد سروره .

وبينما كانا جالسين معاً طالب الأمير « إملاك » أن

يقص عليه تاريخه ، ويخبره بالدافع الذى حمله على أن يختم حياته فى الوادى السعيد . وما كاد يستعد لقص تاريخه حتى استدعى راسلاس إلى حفل موسيقى ، فاضطر إلى أن يكبت استطلاعه حتى المساء .



الفصل الثامن

حيـــاة إملاك

كانت نهاية اليوم فى المنطقة الاستوائية هى الوقت الوحيد للهو والتسلية ، ولهذا كان ينتصف الليـــل قبل أن تكف الموسيقى عن العزف وقبل أن تأوى الأميرات إلى مضاجعهن. ثم دعا راسلاس رفيقه وطلب منه أن يبدأ قصة حياته .

قال إملاك : «سيدى ! إن تاريخى لن يكون طويلا لأن الحياة التى لاتعرف سوى العلم والعرفان تنقضى بهدوء ، وقلما تتنوع بالحوادث ، إذ وظيفة العالم أن يخطب الجماهير ، وأن يفكر فى خلوة ، وأن يقرأ ويسمع ، وأن يسأل ويجيب على الأسئلة . إنه يتنقل حول العالم من غير تظاهر أو إرهاب ، ولا يعرفه ويقدره سوى نظرائه من العلماء .

لقد ولدت فى مملكة « جوياما » التى لاتبعد كثيراً عن منبع النيل . وكان والدى تاجراً ثرياً يتنقل بتجارته بين الممالك الإفريقية الداخلية وسواحل البحر الأحمر . وكان أميناً ومقتصداً ومجداً ، غير أنه كان جامد العاطفة ضيق الأفق.

وكان همه الوحيد ان يكون غنياً وأن يسدل على ثروته الستار حتى لايسطو عليه حاكم المقاطعة » .

قال الأمير : « حقاً لابد أن يكون أبى مهملا فى رعاية ماهو مسئول عنه حين يجرؤ إنسان على أن يغتصب مايملك الآخرون . لو كنت ملكا ما أصاب أحداً من أحقر رعاياى اضطهاد دون أن ينال المضطهد مايستحق من العقاب . إن دمى ليغلى حينما أعلم أن تاجراً لايستطيع أن يتمتع بثمرة جهوده المشروعة خشية أن يفقدها نتيجة لجشع الأقوياء . اذكر لى اسم الحاكم الذى سلب الناس ممتلكاتهم حتى أفضح جرائمه للملك » .

قال إملاك : « سيدى ! إن حماستك نتيجة طبيعية لفضيلة فيك يحييها شبابك ، وسيأتى الوقت الذى تعذر فيه أباك حينما تخلفه ، وتكون أقل جزعاً لسماعك بأمر الحاكم . والظلم فى الممتلكات الحبشية لاهو كثير الوقوع ولاهو مباح. على أنه لم يكشف للآن أى شكل من أشكال الحكومة يمكن أن تمنع فيه القسوة منعاً باتاً . وإن « نظام التبعية » يفترض قوة فى ناحية وخضوعاً فى ناحية أخرى . وقد يساء استعمال القوة إذا أصبحت فى أيدى الناس . وإن يقظة قاضى القضاة تستطيع أن تعالج الكثير من هذه الحال ، غير أن الكثير سيبقى مع

ذلك فى حاجة إلى العلاج ، فإنه لن يستطيع أن يلم بجميع الجـــرائم التى ترتكب ، وقلما يستطيع أن يعاقب على مايعرفه منها » .

قال الأمير : « إننى لا أفهم هذا ، ولكننى أفضل أن استمع إليك على أن أجادلك . فعد إلى حديثك » .

فاستأنف إملاك قائلا : « لقد عزم والدى أول الأمر على ألا أتناول من التربية إلا بمقدار مايؤهلنى لحرفة التجارة . وبعد أن تبين فى قوة ذاكرة عظيمة وسرعة بديهة كان عظيم الأمل فى أن أصبح يوماً ما أغنى رجل فى الحبشة » .

قال الأمير : « لماذا يرغب والدك أن يزيد من ثروته إذا كانت قد بلغت حـــداً أعظم مما يستطيع إعلانه والتمتع بثمرته ؟ أنا لا أريد أن أشك فى صدق كلامك ، ولكن النقيضين لايمكن أن يكون كل منهما صحيحاً » .

فأجاب إملاك : « لايمكن أن يكون كلا النقيضين صحيحاً إلا بالنسبة للإنسان فإنه من المستطاع أن يكونا كذلك ، ومع ذلك لايعتبر التنوع تناقضاً فقـــد يكون من المحتمل أن والدى كان يتوقع عهداً أعظم طمأنينة . ومهما تكن الظروف فإنه من الضرورى أن يوجد بعض الرغبات لتستمر الحياة

فى حركتها . ومن قضيت حاجاته الحقيقية تطلع إلى مايتخيله من حاجات » .

قال الأمير : « إننى أدرك هـذا إلى حد ما ، وإننى اعتذر عن مقاطعتك » .

فاستأنف إملاك كلامه قائلا : « بهذا الأمل أرسلنى والدى إلى المدرسة ، ولكن بمجرد أن وجدت بهجة المعرفة وشعرت بلذة الفهم والكبرياء المنبعثة عن التخيـل بدأت فى سكون ازدرى الثراء ، وصممت على أن أخيب أمل والدى ، وقد أثار تفكيره الفظ عطفى وإشفاقى . وكنت قد بلغت من العمر عشرين عاماً قبل أن يعرضنى والدى لمشقة الترحال ، وكان يتناوب فى ذاك الوقت على تعليمى فروع آدابى الوطنية جميعها أساتذة متتابعون . ولما كانت كل ساعة تمر تزودنى بطريف عشت فى جو من الرضا والقناعة ، ولكن حينما تقدمت بى السن فقدت الكثير من التبجيل الذى اعتدته لأساتذتى لأننى لم أجدهم بعد انتهاء الدرس خيراً من عامة الناس أو أحكم منهم .

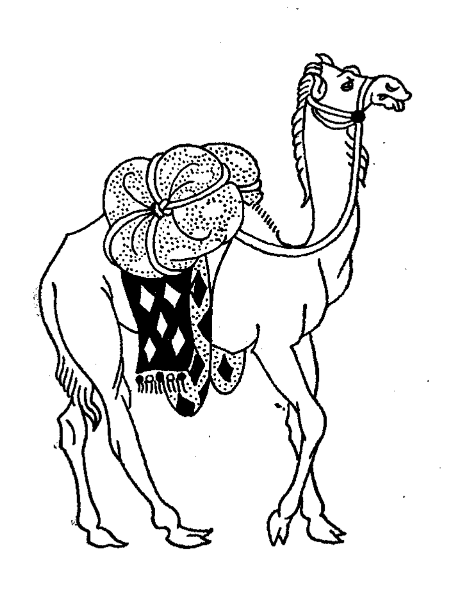
« عندئذ قرر والدى أن يعدنى لحرفة التجارة . وبعد أن فتح أحد كنوزه المحفوظة تحت الأرض عد منه عشرة آلاف من القطع الذهبية قائلا : (أيها الشاب ! هذا هو رصيدك الذى يجب أن تتعامل به . لقد بدأت أنا بأقل من خمس هذا

المقدار ، وتستطيع أن ترى كيف أن الجد والادخار قد نمياه .
هذا نصيبك ، ولك أن تضيعه أو تنميه . فإن أضعته فعليك
أن تنتظر موتى حتى تصبح ثرياً ، وإن ضاعفت رصيدك فى
مدى أربع سنوات لم تصبح تابعاً لى وخاضعاً لأوامرى ، بل
عشنا معاً صديقين وزميلين ، لأن من يعادلنى فى فن تنمية
الثروة خليق به أن يكون دائماً نظيراً لى) .

« وضعنا النقود على الجمال مستورة فى أكياس البضائع
الزهيدة الثمن ، ورحلنا إلى شاطىء البحر الأحمر ، وحينما
وقع نظرى على صفحة الماء المترامية الأطراف اعترى قلبى
مايعترى قلب السجين الهارب من الغبطة بالخلاص والحرية ،
وشعرت بلهيب من حب الاستطلاع لا يطفأ يندلع فى نفسى
فقررت أن أغتنم هذه الفرصة لأرى أخلاق الشعوب الأخرى
ومشاربهم ، وأتعلم علوماً لم تعرف فى بلاد الحبشة .
« وتذكرت أن والدى كان قـــد ألزمنى بأن أنمى
رصيدى لا بعهد ينبغى ألا أخونه ، بل بعقوبة ترك لى الخيار
فى تحملها ، ولهذا صممت على أن أشبع الرغبة التى تسيطر
على ، وأن أطفىء ظمئى إلى الاستطلاع بالنهل من معين المعرفة .

« ولما كان المفروض أن أزاول التجارة مستقلا عن أبى
كان من اليســـير على أن أتعرف على ربان سفينة ، وأن

أحصل على إذن برحلة إلى بعض الممالك الأخرى . ولم يكن لدى أى دافع لتنظيم رحلتى ، بل كان كل مايهمنى أن أرى بلاداً لم أرها من قبل. ولهذا صعدت إلى سفينة تقصد (سورات) بعد أن تركت رسالة لأبى أنبئه فيها بعزمى » .



الفصل التاسع

حياة إملاك أيضاً

« وحينما دخلت عالم المياه لأول مرة ، وتوارى البر خلف الأفق نظرت حولى برهبة تمتزج بسرور . وبعد أن فكرت فى أن نفسى قد اتسع أفقها بالمنظر الذى لا حد له تخيلت أننى أستطيع أن أستمر فى النظر حولى إلى الأبد من غير سآمة أو ضجر ، غير أننى شعرت بعد زمن قصير بالملل من إطالة النظر إلى أشياء متماثلة الشكل ، إذ لم أستطع أن أرى ثانية سوى ما كنت قد رأيته من قبل . ثم نزلت إلى داخل السفينة وساورنى الشك فى أن جميع مسراتى المستقبلة ستنتهى نفس النهاية بالضيق وخيبة الأمل . ومع ذلك قلت لنفسى إن المحيط والأرض مختلفان تماماً ، وكل ما فى الماء من تنوع هو الراحة والحركة ، ولكن فى الأرض جبال ووديان وصحارى ومدن ، ويسكنها أناس يختلفون فى العادات ، ويتضاربون فى الآراء ، وآمل أن أجد التنوع فى الحياة على الرغم من أننى افتقدته فى الطبيعة .

« بهذه الفكرة سكنت عقلى ، وسريت عن نفسى أثناء الرحلة تارة بالتعلم من الملاحين فن الملاحة التى لم أزاولها من

قبل قط ، وتارة أخرى بتكوين خطط لسلوكى فى أوضاع مختلفة متخيلة لم أقف فى واحد منها أبداً من قبل .

« وكدت أضيق بما مارسته فى البحر من تسليات لولا أن نزلنا إلى البر سالمين فى سورات . وحافظت على نقودى ، وبعد أن ابتعت بعض السلع للتعمية ألحقت نفسى بقافلة كانت وجهتها داخل البلاد . ولما كان رفاقى يتكهنون لسبب ما بأننى غنى ، وأننى — بسبب أسئلتى وإعجابى — جاهل بالبلاد اعتبرونى حديث عهد بها يحق لهم أن يخدعوه ، وأن علىّ أن أتعلم بالثمن المعتاد فن الغش والخداع . فعرضونى لسرقة الخدم ، واستغلال رجال الشرطة ، ورأونى غنيمة بالغش والتدليس من غير أن تكون لهم مصلحة فى ذلك سوى أن يبتهجوا بتفوقهم على فى المعرفة » .

قال الأمير : « على رسلك ، هل بلغت النقيصة بالإنسان إلى حد أنه يضر بالآخرين من غير أن يستفيد هو نفسه من ذلك شيئاً ؟ إننى أستطيع أن أفهم بسهولة أن الجميع مغتبطون لتفوقهم ، غير أن جهلك بالبلاد كان عرضياً فقط . ولما لم يكن هذا الجهل جريمة ارتكبتها ، ولا حماقة اتصفت بها لا يمكن أن يصلح سبباً لإطراء أنفسهم . وكان من المستطاع أن يظهروا المعرفة التى تعوزك ويتمتعون بها بطريقة أكثر تأثيراً ، وهى تحذيرك من الخيانة بدلا من أن يخونوك » .

قال إملاك : « قلما تجتمع الكبرياء والرقة ، وإن الكبرياء تسعد نفسها بمزايا غاية فى الوضاعة ، والحسدة لا يشعرون بسعادتهم إلا إذا قوبلت ببوس الآخرين . وإن رفاقى ناصبونى العداء لأنه أحزنهم أن يظنونى غنياً ، واضطهدونى لأنه أبهجهم أن يجدونى ضعيفاً » .

قال الأمير : « عد إلى كلامك . إننى لا أرتاب فى الحقائق التى تقصها ، غير أننى أتخيل أنك تنسبها لبواعث خاطئة » .

قال إملاك : « بلغت بين هؤلاء الرفاق (أجرا) قاعدة (هندوستان) ، وهى التى يقيم فيها عظيم المغول ، وبدأت أتعلم لغة البلاد ، وأصبحت بعد أشهر قليلة قادراً على أن أتحدث مع العلماء ، وكان بعضهم مكتئباً ومتحفظاً ، والبعض من السهل التفاهم معه والاتصال به ، والبعض غير راغب أن يعلم أحداً ما عانى فى تعلمه الأمرين ، وكان يرى البعض أن الغاية من دراستهم هى أن يحصل على درجة من الوقار والتبجيل يتمتع بها المعلم .

« فزكيت نفسى لدى معلم الأمراء الصغار إلى حد سمح لى بالمثول بين يدى الملك بوصفى عالماً من فطاحل العلماء . فسألنى الملك بضعة أسئلة خاصة بوطنى ورحلتى . ومع أننى لا أستطيع أن أذكر الآن أى شىء تفوه به مما هو فوق

مقدور العامة من الناس إلا أننى انصرفت من حضرته مذهولا لحكمته ومسحوراً بطيب نفسه .

« وسمت الثقة بى فى ذلك الوقت إلى درجة أن التجار الذين رافقونى فى الرحلة سألونى أن أزكيهم لدى سيدات القصر ، ودهشت لثقتهم فى سرعة إجابة مطلبهم ، وأنبتهم برفق على سوء صنيعهم فى الطريق ، فلم يكترثوا لتأنيبى ، وما أعاروه اهتماماً ، ولم تبد عليهم أية علامة للخجل أو الأسف .

« ثم حثونى على إجابة مطلبهم مقدمين لى رشوة ، ولكن الذى لا أرغب فى أدائه عطفاً ورحمة لا أؤديه طمعاً فى المال . فرفضت طلبهم لا لأنهم آذونى ، ولكن لأننى لا أود أن أمكنهم من إيذاء الآخرين . فقد علمت أنهم سيستغلون الثقة بى فى غش هؤلاء الذين يبتاعون سلعهم .

« وبعد أن أقمت (بأجرا) ، وتعلمت فيها كل شيء حتى لم يبق فيها من مزيد للتعلم رحلت إلى (فارس) حيث شاهدت أنواعاً شتى من بقايا العظمة القديمة ، ورأيت الكثير من الوسائل الحديثة للراحة فى الحياة . فالفرس أمة تميل بطبعها إلى الاجتماع ميلا شديداً . وقد هيأت لى مجتمعاتهم كل يوم فرصاً ألاحظ فيها الأخلاق والعادات ، وأتتبع الطبيعة البشرية فى جميع تطوراتها وتغيراتها .

« ومن فارس مررت إلى بلاد العرب . وهناك رأيت أمة من الرعاة المحاربين ، يعيشون حياة لا استقرار فيها ، وكل ما يملكونه من ثروة هو قطعانهم . وقد شنوا حروباً توارثوها على مر الزمن ضد الناس جميعاً ، مع أنهم لايطمعون فى بلادهم ، ولا يحسدونهم على ممتلكاتهم » .



الفصل العاشر

حياة إملاك أيضاً — بحث فى الشعر

« وحيثما ذهبت وجدت الشعر يعتبر أعلى درجات المعرفة ، وينظر إليه باحترام يقرب مما يقدم الإنسان للطبيعة الملاكية ، ومع ذلك يملؤنى عجباً أن أقدم الشعراء فى جميع البلاد تقريباً يعدون أشعرهم ، إما لأن أنواع المعرفة الأخرى يحصل عليها تدريجاً بينما الشعر هبة تمنح دفعة واحدة ، وإما لأن بواكير الشعر قد أذهلت طرافتها الأمم فاحتفظ الشعر عن رضا وموافقة بما كان قد حازه أولا من منزلة اتفاقاً ومصادفة ، وإما لأن أوائل الكتاب قد استحوذوا على أبرز الأشياء ليصفوها وعلى أكثر الوقائع احتمالا ليجعلوا منها موضوعاً للرواية ، ولم يتركوا لمن خلفوهم سوى صور لمفردات هذه الوقائع وتأليفات جديدة لنفس هذه الصور الخيالية ، وذلك لأن مجال الشعر أن يصف الطبيعة والوجدان ، وهما لا يتغيران أبداً . ومهما يكن السبب فإنه يقال عادة إن قدامى الكتاب استأثروا

بالطبيعة ، بينما استحوذ تابعوهم على الصنعة والفن ، وإن السلف يمتازون بالجزالة والابتكار ، والخلف بالرقة والصقل .

« وكنت أرغب أن أضيف اسمى إلى هذه الرُّفْقَة الناهة فقرأت كل شعراء الفرس والعرب ، وكنت أستطيع أن أعيد عن ظهر قلب جميع ما سطر فى الأسفار المعلقة فى مسجد مكة ، ولكن سرعان ما تحققت أن الإنسان لا يمكن أن يكون عظيما بالتقليد . فدفعتنى رغبتى فى السبق إلى أن أحول انتباهى إلى الطبيعة وإلى الحياة . وكان من الواجب أن آتخـذ لى من الطبيعة موضوعاً ، ومن الناس جمهوراً ، فإننى لم أستطع مطلقاً أن أصف ما لم أر ، كما أننى لم آمل فى إثارة هؤلاء الذين لم أفهم آراءهم ومصالحهم بالرغبة أو الرهبة .

« وبما أنى قررت الآن أن أصير شاعراً رأيت كل شيء بهدف جديد ، فاتسع مجال انتباهى فجأة ، ولم تخطىء ملاحظتى أى نوع من أنواع المعرفة ، وطويت الجبال والصحارى باحثاً عن صور وتشبيهات ، وطبعت فى عقلى كل شجرة فى الغابة ، وكل زهرة فى الوادى ، ولاحظت بعناية مماثلة جلاميد الصخور وأبراج القصور ، وسرت أحياناً ومنعطفات الجداول ، وراقبت آونة سحائب الصيف فى تغيرها ، إذ لا يمكن أن يخلو شيء من فائدة للشاعر ، فيجب أن يألف

خياله كل ما هو جميل أو مخيف ، كما يجب ألا يغيب عنه كل ما هو ملىء بالرهبة وما هو ضئيل أنيق . فنباتات الحديقة وحيوان الغابة ومعادن الأرض وشهب السماء يجب أن تلتقى معاً لتملأ ذهنه بمتنوعات لا حصر لها . إذ كل فكرة مفيدة فى تأييد حقيقة دينية أو خلقية أو تزيينها وتحبيبها إلى النفوس. ومن عرف أكثر كان أقدر على تنويع صوره الشعرية ، وإشباع قارئه بتلميحاته الخفية وتعليماته المفاجئة .

« لهذا كنت حريصاً على دراسة مظاهر الطبيعة جميعها . وكل بلاد جبتها أضافت جديدا إلى كفاياتى الشعرية » .

قال الأمير : « لا بد أن الكثير قد أفلت من ملاحظتك فى مثل هذا المجال الواسع . لقد عشت حتى الآن فى دائرة تحدها هذه الجبال ، ومع ذلك لا أستطيع أن أتجول من غير أن أرى شيئاً لم أره أو لم أسمعه أبداً من قبل » .

قال إملاك : « إن وظيفة الشاعر أن يختبر النوع لا الفرد ، وأن يلاحظ الصفات العامة والمظاهر البارزة . فليس من شأنه أن يعد الخطوط الملونة لزهرة السوسن ، أو أن يصف الظلال المختلفة لخضرة الغابة ، بل همه أن يعرض فى لوحاته للطبيعة أبرز الأجزاء وأظهرها حتى يمثل أصل الطبيعة لكل عقل ، وعليه أن يُعرِض عن الفوارق الدقيقة التى قد يلاحظها

البعض ويهملها البعض الآخر ، وذلك من أجل الخصائص التي تتشابه وضوحاً فى حالتى اليقظة والغفلة .

« لكن معرفة الطبيعة ليست سوى نصف وظيفة الشاعر . إذ يجب عليه بالإضافة إلى ذلك أن يلم بجميع أشكال الحياة . فطبيعته تتطلب أن يقدر السعادة والبؤس فى كل حالة ، وأن يلاحظ ألوان الوجدان جميعها فى كل تأليفاتها ، وأن يتتبع تغيرات العقل البشرى بأنواع التعليم والمؤثرات العرضية : المناخ أو العادات ، وذلك من عهد نشاط الطفولة وحيويتها إلى آخر مراحل الضعف والتدهور فى عهد الشيخوخة . وعلى الشاعر أن يتنزه عن أهواء عصره ووطنه وأن يعتبر الصواب والخطأ فى حالتهما المجردة غير المتحولة ، وأن يقل اعتباره للقوانين والآراء المعاصرة ، وعليه أن يسمو إلى الحقائق العامة المجردة التى لا تتغير أبداً . وعليه — بناء على هذا — أن يقنع بالتقدم البطىء لاسمه وشهرته ، وألا يقيم وزناً لمديح عصره ، بل يترك الحكم له أو عليه لعدالة الأجيال القادمة بعده ، كما أن عليه أن يكون للطبيعة مترجما ، وللنوع الإنسانى مشرعاً ، وأن يعتبر نفسه موجهاً لأفكار الأجيال المستقبلة وأساليبهم فى الحياة وممتازاً امتيازاً غير عادى بالنسبة للزمن والمكان اللذين ظهر فيهما .

« على أن عمل الشاعر لم يبلغ النهاية بعد إذ يلزمه أن يعرف لغات وعاوماً، كما يلزمه — نتيجة للتدريب المستمر — أن يتذوق كل رقة فى الكلام وروعة فى الانسجام حتى يكون أسلوبه جديراً بأفكاره » .



الفصل الحادى عشر

قصة إملاك تستمر : لمحة فى الحج

شعر إملاك بنوبة من الحماسة ، وعاد إلى تفخيمه لمهنته الخاصة ، فصاح الأمير قائلا : « حسبك ، لقد أقنعتنى بأن الإنسان لا يمكن أن يكون أبداً شاعراً ، فعد إلى قصتك ».

قال إملاك : « إنه لمن العسير أن يصبح الانسان شاعراً».

فأجاب الأمير : « من العسير جداً إلى حد أننى لا أرغب فى الوقت الحاضر أن أستمع إلى المزيد من جهود الشاعر م خبرنى إلى أين ذهبت بعد أن رأيت فارس ؟ » .

قال الشاعر : « رحلت من فارس عن طريق الشام ، وأقمت فى فلسطين ثلاث سنين حيث تحدثت إلى عدد عظيم من أمم أوربا الشمالية والغربية ، هذه الأمم التى تسيطر الآن على جميع القوى والمعارف ، ولا تقاوم جحافلها ، وتهيمن أساطيلها على أقصى أجزاء المعمورة . وحينما وازنت بين هؤلاء الناس وبين مواطنىّ فى مملكتنا وهؤلاء الذين يحيطون بنا ظهروا لى كأنهم نوع آخر من الكائنات . فمن الصعب

أن يتمنى الإنسان شيئاً فى بلادهم من غير أن يحصــل عليه . وهناك ألف من الفنون والصناعات — التى لم نسمع بها قط — يعمل من غير انقطاع لراحتهم وإسعادهم . وما من شيء حرمهم منه مناخهم إلا أمدتهم به تجارتهم » .

قال الأمير : « كيف كان الأوربيون أقوى منا إلى هذا الحد ؟ وإذا كانوا قد استطاعوا فى سهولة ويسر أن يزوروا آسيا وأفريقيا للتجــارة أو الغزو فلماذا لا يستطيع الآسيويون والأفريقيون أن يغزوا شواطئهم ويقيموا المستعمرات فى موانيهم ويفرضوا قوانينهم على أمرائهم الأصليين ، فالريح التى تعيدهم إلى بلادهم هى نفسها التى توصلنا إلى هناك » .

أجاب إملاك : « إنهم ياسيدى أقوى منا لأنهم أحكم ، والمعرفة تتغلب دائما على الجهل ، كما يحكم الإنسان بعقله وتمييزه الأنواع الأخرى من الحيوان ، غير أننى لا أعرف سببا لتفوقهم علينا فى المعرفة إلا أن يكون ذلك مشيئة الله الذى لا راد لمشيئته » .

قال الأمير متأوها : « متى أستطيع أن أزور فلسطين وأندمج فى هذا المجتمع القوى من الأمم ؟ دعنى أملأ الوقت بمثل هذه الصور التى تعطينيها حتى تحين هذه اللحظة السعيدة . إننى لا أجهل السر فى اجتماع مثل هذا العدد العديد فى ذلك

المكان ، ولا بد من أن أعتبره مركز الحكمة والتقوى الذى يجب أن يؤمه دائماً أصلح الناس وأحكمهم من كل طرف» .

قال إملاك : « من الأمم من يرسل القليل من الزوار إلى فلسطين لأن الكثير من المذاهب العلمية العديدة فى أوربا تتفق فى صبغ الحج بصبغة الخرافة ، والنظر إليه باعتباره عملا يدعو إلى السخرية والضحك » .

قال الأمير : « إنك تعلم أن حياتى لم توقفنى على الآراء المتباينة إلا قليلا جداً ، وسيقتضى استماعى إلى حجج الجانبين كليهما وقتا طويلا جداً ، وإذ كنت قد فكرت فيها أخبرنى بنتيجتها » .

قال إملاك : « الحج كغيره من أعمال الصلاح والتقوى قد يكون معقولا ، وقد يكون خرافيا حسب المبادئ التى يؤدى على مقتضاها . وليست الرحلات الطويلة طلباً للحقيقة مفروضة ، إذ الحقيقة الضرورية لتنظيم الحياة توجد دائما حيث يبحث عنها بحثاً مخلصاً ، وليس تغيير المكان سبباً طبيعياً لزيادة التقوى والصلاح ، بل إنه لا بد أن يؤدى إلى تشتيت الفكر وارتباكه . ولكن لما كان الناس يذهبون كل يوم ليمتعوا أنظارهم بالميادين التى كانت يوماً ما مسرحاً لأعمال عظيمة ، ويعودون بشعور أقوى نحو هذه الحادثة فمن الطبيعى أن

يدفعنا نفس النوع من حب الاستطلاع إلى أن نمتع النظر ببلاد نبتت فيها دياناتنا . وإنى لأعتقد أنه ما من إنسان تطلع إلى هذه المناظر المليئة بالرهبة والوقار إلا ازداد صلاحه ثباتاً وقوة . أما أن دعاء المولى سبحانه يستجاب فى مكان دون آخر فليس إلا حلماً من أحلام الذين امتلأت عقولهم بالخرافات الخاملة ، وأما أن بعض الأماكن يؤثر فى عقولنا بطريقة غير عادية فذلك رأى تبرره التجارب دائماً . ومن ظن أن محاربة رذائله تنتهى فى فلسطين بنجاح أعظم ربما وجد نفسه مخطئاً ، ومع ذلك لا يعتبر ذهابه إلى هناك حماقة . ومن حسب أن خطاياه تغفر فيها بصورة أعظم وأسرع خان كلا من عقله ودينه » .

قال الأمير : « لقد اصطنع الأوربيون هذه التفرقات ، وسأنعم النظر فيها وقتاً آخر . وأى أثر وجدت للمعرفة ، هل هذه الأمم بتفوقهم علينا فيها أسعد حالا منا ؟ » .

قال الشاعر : « لقد بلغ البؤس فى العالم حداً يندر معه أن يجد الإنسان الفراغ من همومه ليقدر السعادة النسبية للآخرين . فالمعرفة من غير شك إحدى وسائل المتعة والسرور يؤيد ذلك الرغبة الطبيعية التى يشعر بها كل عقل لزيادة أفكاره . وليس الجهل سوى حرمان وعوز لا يمكن أن

ينتج شيئاً . إنه فراغ تقف فيه النفس جامدة ثقيلة الحركة لحاجتها إلى الجاذبية . ونحن دائماً نسر حينما نتعلم ، ونحزن حينما ننسى ، من غير أن نعرف سبباً لذلك . فأنا على هذا ميال إلى أن أستنبط أنه كلما اتسع أفق عقولنا سعدنا أكثر ما لم يحدث شيء يتعارض مع نتيجة التعلم .

« وحينما نعد وسائل الراحة فى الحياة نجد الأوربيين أكثر امتيازاً : فهم يشفون الجروح والأمراض التى تضنينا وتبيدنا ، ونحن نعانى صرامة الجو وهم يستطيعون التغلب عليها ، ولهم الآلات التى ينجزون بها الكثير من الأعمال الشاقة التى نؤديها بالصناعات اليدوية ، وهناك وسائل للمواصلات بين الأماكن المتباعدة حتى يندر أن يقال إن الصديق بعيد عن صديقه . وسياستهم تزيل كل ما يعكر صفو الحياة العامة : فلهم طرق شقت بين الجبال ، وجسور نصبت فوق الأنهار . وإذا اتجهنا نحو الحياة الخاصة وجدنا مساكنهم أرحب ، وممتلكاتهم آمن » .

قال الأمير : « إن من يتمتع بجميع وسائل الراحة هذه لا بد أن يكون سعيداً ، وأنا لا أحسدهم على شيء منها بقدر ما أحسدهم على السهولة التى يتبادل بها الأصدقاء أفكارهم على بعد الشقة بينهم »

أجاب إملاك : « الأوربيون أقل بؤساً منا ، ولكنهم ليسوا سعـــداء . فالحياة الإنسانية فى كل مكان ليست سوى حالة لا بد أن يحتمل فيها الكثير ، ولا يتمتع فيها إلا بالقليل » .



الفصل الثاني عشر

قصة إملاك تستمر

قال الأمير : « إننى لا أود مع ذلك أن افترض أن السعادة موزعة بين البشر على هـذا النحو من الشح . ولا مناص من أن اعتقد أنه لو ترك لى الخيـار فى الحياة لاستطعت أن أملأ الأيام جميعها بالمباهج والمسرات ، فلن أوذى أحداً ، ولن أثير غضباً ، وسأكشف الهم جميعه ، وأتمتع بنعمة الرضا والقناعة ، وسأختار أصدقائى من بين الحكماء ، وزوجى من بين الفضليـات ، ولن أتعرض — بنـاء على هذا — لخطر الغدر أو القسوة ، وسيكون أطفالى — بفضل رعايتى — على جانب من العلم والتقوى ، وسيردون لى فى شيخوختى ما منحتهم إياه فى طفولتهم . وأى شئ يجرؤ على أن يتعرض لمن يستطيع أن يدعو من كل جانب الآلاف ممن أثروا بكرمه ، أو سوعدوا بنفوذه ؟ ولماذا لا تنزلق الحياة برفق فى تبادل لطيف بين حماية الناس واحترامهم ؟ ومن الممكن أن يتم كل هذا بعيداً عن مساعدة المظاهر الأوربية التى يبدو من آثارها أنها جميلة المظهر أكثر منها نافعة . فلندعهم ونعد إلى رحلتنا » .

فاستطرد إملاك قائلا : « ومن فلسطين اخترقت مناطق كثيرة بآسيا فى زى تاجر بالممالك الأكثر مدنية وعمراناً ، وفى صورة حاج بين سكان الجبـــال من البربر . وأخيراً بدأت أحن إلى وطنى على أمل أن أجد الراحة من أسفارى ومتاعبى فى الأماكن التى قضيت فيها السنين الأولى من الحياة ، وحيث أبهج رفاقى الأعزاء بقص مغامراتى . وكثيراً ما كنت أصور لنفسى هؤلاء الذين أمضيت معهم بمرح ولهو الساعات السعيدة فى فجر الحياة جالسين حولى فى المساء ، ودهشين لقصصى ، ومصغين لنصائحى .

« وحينما تمكنت هــذه الفكرة من ذهنى اعتبرت كل لحظة ضائعة إن لم تزدنى قربا من الحبشة. فأسرعت إلى مصر ، وعلى الرغم من تلهفى إلى العودة تأجلت عشرة شهور لتأمل عظمـــة مصر القديمة والبحث فى بقايا معارفها العتيقة . ووجدت فى القاهرة خليطاً من كل الأمم ، بعضهم مدفوع بحب المعرفة ، والبعض بأمل الربح ، والكثير منهم برغبة العيش بأسلوبهم الخاص بعيدين عن الأنظار فى ثنايا الجماهير ، لأنه من الممكن فى مدينة عامرة بالسكان كالقــاهرة أن يحصل الإنسان فى نفس الوقت على متع الاجتماع وسرية العزلة .

« ومن القاهرة سافرت إلى السويس ماراً على طول

الساحل حتى وصلت إلى الثغر الذى غادرت منه بلادى منذ عشرين عاماً ، فألحقت نفسى بقافلة و دخلت وطنى ثانية.

«وكنت أتوقع حينئذ من أقاربى مداعباتهم ، ومن أصدقائى تهنئاتهم، ولم أفقد الأمل فى أن أبى — مهما علق على الثروة من قيمة — سيعتز بابن استطاع أن يزيد من غبطة الأمة وشرفها. ولكن سرعان مااقتنعت بأن آمالى ذهبت أدراج الرياح ، فقد توفى أبى منذ أربع عشرة سنة بعـــد أن قسم ثروته بين إخوتى ، وانتقل إخوتى إلى مناطق أخرى ،ولم يبق من رفاقى على قيد الحيـــاة سوى النزر اليسير ، وبعض من بقى منهم تذكرنى بصعوبة ، والبعض اعتبرنى شخصاً شوهته العادات والأساليب الأجنبية .

« غير أن الإنسان الذى عركته الحوادث وصقلته تقلبات الدهر ليس من السهل أن يتسرب إلى نفسه الهم والغم ، فنسيت بعد فترة وجيزة خيبة أملى ، وحاولت أن أزكى نفسى لدى نبلاء المملكة فأذنوا لى بالجلوس إلى موائدهم، واستمعوا إلى قصتى ، ثم صرفونى . أنشأت مدرســـة فحرم على التدريس ، ثم قررت أن أركن إلى الحياة المنزلية الهادئة ، وعرضت نفسى على سيدة كانت كلفة بأحاديثى فرفضت التزوج منى لأن أبى كان تاجراً .

« وبعد أن أضنانى التوسل والرفض قررت أن أحجب

نفسى عن العالم إلى الأبد ، وألا أعول بعد الآن على رأى الآخرين وتقلب خواطرهم ، فانتظرت الوقت الذى يفتح فيه رتاج الوادى السعيد حتى أودع الأمل والخوف . وجاء اليوم وكان فى ممتازاً فهنأت نفسى على السجن الدائم » .

قال راسلاس : « وهل وجدت السعادة هنا أخيراً ؟ أخبرنى من غير تحفظ هل أنت قانع بحالك أو أنك ترغب فى أن تعود ثانية للتجول وطلب المعرفة ؟ كل سكان هـــذا الوادى يفخرون بنصيبهم ، وعند زيارة الملك السنوية يدعون الآخرين ليشاركوهم غبطتهم وحبورهم » .

قال إملاك : « أيها الأمير العظيم ! سأطلعك على حقيقة الأمر . إننى لاأعرف واحداً من جميع الحاضرين معك لايلعن الساعة التى دخل فيها هذه العزلة . إننى أقل شقاء من الباقين لأن لى عقلا مفعما بالصور التى أستطيع أن أنوعها وأصل بينها كلما أردت ، كما أستطيع أن أسلى نفسى فى عزلتى بتجديد المعرفة التى تأخذ فى الذبول من الذاكرة ، وبتذكر الحوادث فى حياتى السالفة . ومع ذلك ينتهى بى كل هـــذا إلى أفكار محزنة هى أن ماحصلت عليه الآن عبث ، وأننى لاأستطيع أن أتمتع ثانية بمباهجى ومسراتى . أما الباقون الذين لاتحمل عقولهم سوى آثار اللحظة الحاضرة فهم إما أن تفترسهم وجدانات خبيثة ، وإما أن يجلسوا جلسة الأغبياء فى ظلمة فراغ دائم » .

قال الأمير : « أى وجدانات يمكن أن تكـــدر هؤلاء الذين ليس لهم منافسون ؟ نحن نعيش فى مكان يمنع العجز فيه الحقد ، وتقضى المتع الجماعية على كل حسد » .

قال إملاك : « قد تكون هناك مشاركة فيما نملك من مادة ، ولكن ليس هناك مشاركة فى المحبة أوالتقدير . ولابد أن يكون هناك تفاوت فى السرور . وهذا الذى يجد نفسه موضع الازدراء سيكون دائماً حسوداً ، وسيكون أشد حسداً وأسوأ قصداً إذا قضى عليه بالعيش بين الذين يزدرونه . أما الدعوة التى يسحر بها الآخرون للاندماج فى حالة يشعر الداعون بأنها بائسة فمصدرها الخبث الطبيعى لبؤس يائس . فهم برمون بأنفسهم وببعضهم البعض ، ويتوقعون أن يجدوا خلاصاً فى الجديد من الرفاق ، وهم يحسدون الغيرعلى الحرية التى أضاعتها حماقتهم ، ويودون لو رأوا جميع الناس مثلهم فى سجن وعزلة .

« على كل حال أنا برىء من هذه الجريمة براءة تامة ، فلن يستطيع أحد أن يقول إنه بائس بسبب إغرائى وتضليلى. إننى أشفق على هذه الجماعات المتزاحمة سنوياً فى التماس الإذن لهم بالانضمام إلى هذا الأسر ، وكم كنت أود لو سمح لى بأن أحذرهم من الخطر الذى يتهددهم » .

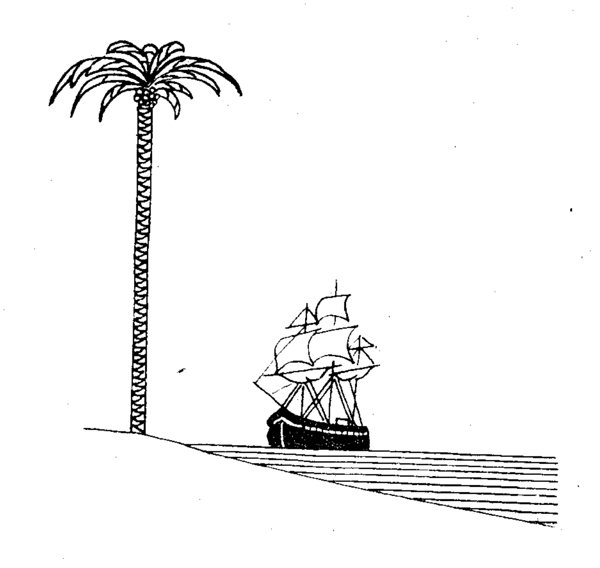
قال الأمير : « عزيزى إملاك ! سأطلعك على خبيئة نفسى . لقد فكرت طويلا أن أهرب من الوادى السعيد، فاختبرت الجبال من كل جانب ، غير أننى أجد نفسى أمام عقبة كأداء لاسبيل للتغلب عليها ، فأرشدنى إلى الطريق الذى أحطم به سجنى . ستكون أنت الرفيق فى هربى ، والمرشدفى غدواتى وروحاتى ، والشريك فى حظى ، والموجه الوحيد لما أختار فى الحياة » .

فأجاب الشاعر : « سيدى ! سيكون هروبك صعباً ، وربما تنثنى عن عزمك وترجع عن استطلاعك . إن العالم الذى تتصوره أملس ساكناً كالبحيرة فى الوادى السعيد سوف تجده خضما يرغى بالأعاصير ، ويغلى بالدوامات . وستغمرك آونة موجات من العنف ، وتصطدم أحياناً بصخور من الخيانة ، وستحن الف مرة بين الأخطاء وضروب المكر والخداع وشتى المنافسات والقلق إلى قواعد الهدوء هـــذه ، وتترك برغبة صادقة الأمل فى البعد من الخوف » .

قال الأمير : « لاتحاول أن تصرفنى عن غرضى . إننى متلهف لرؤية مارأيت . ولما كنت أنت نفسك برما بالوادى فلاريب فى أن حالتك الأولى كانت خيراً من هذه . ومهما تكن نتيجة تجربتى فقد صممت على أن أحكم بعينى رأسى

على حالات الناس المختلفة ثم أحدد اختيارى طريق الحياة » .

قال إملاك : « إننى أخشى أن تكون هناك عقبات أقوى من إغرائى ونصحى تحول بينك وبين قصدك . ومع ذلك مادام عزمك قد تحدد لاأنصحك أن تركن إلى اليأس ، فإن المستحيل من الأشياء قليل أمام المثابرة والكفاية » .



الفصل الثالث عشر

راسلاس يكشف وسيلة الهرب

عندئذ صرف الأمير صفيه ليرتاح ، ولكن قصة العجائب والطرائف بلبلت خواطره ، فقلب فى ذاكرته كل ماسمع وأعد عدداً لايحصى من الأسئلة للصباح .

لقد تقشع فى ذلك الوقت الكثير من قلقه فقــد وجد صديقاً يستطيع أن يشاركه أفكاره ، ويستعين بتجاربه فى تنفيذ خططه ، فلم يقض على قلبه بعد الآن أن يفعم بالألم والهم فى صمت ، واعتقد أنه بصحبة مثل هذا الصديق يمكن أن يحتمل أى مكان حتى الوادى السعيد . وإذا استطاعا أن يجوبا العالم معا فذلك كل مايتمناه .

وفى أيام قليلة انطلقت المياه وجفت الأرض ، وخرج الأمير وإملاك معاً ليتحادثا بعيدين عن أعين الباقين . والأمير الذى كان دائماً شارد الفكر كلما مر من الرتاج قال مخاطباً إياه — وقد بدت على محياه أمارات الحزن — : « لماذا تبلغ

هذا الحد من القوة ، بينما يصل الإنسان إلى هذا القدر من الضعف ؟ » .

فأجاب رفيقه : « ليس الإنسان ضعيفاً ، فإن المعرفة أكثر من معادل للقوة ، وإن المهيمن على الآلات الميكانيكية يسخر من القوة . إننى أستطيع أن أهشم الرتاج ، ولكننى لا أستطيع أن أفعل ذلك سراً ، ولذا لابد أن نحاول طريقة أخرى » :

وبينما كانا يسيران بجانب الجبل لاحظا أن الأرانب التى طردها المطر من أجحارها قد استظلت بالشجيرات ، وكونت ثقوبا خلفها متجهة إلى أعلى فى خط مائل . قال إملاك : « لقد كان رأى القـــدامى أن العقل البشرى قد استعار فنوناً كثيرة من غريزة الحيوان ، فلا يحط من شأننا — على هذا — أن نتعلم من الأرنب . وربما نستطيع الهرب بثقب الجبل فى نفس الاتجاه . وسنبدأ من حيث تطل القمة على وسط الوادى ونعمل إلى أعلى حتى نصل خلف النتوء » .

وحينما سمع الأمير هذا الاقتراح برقت عيناه من الفرح وقد كان التنفيذ سهلا والنجاح محققاً .

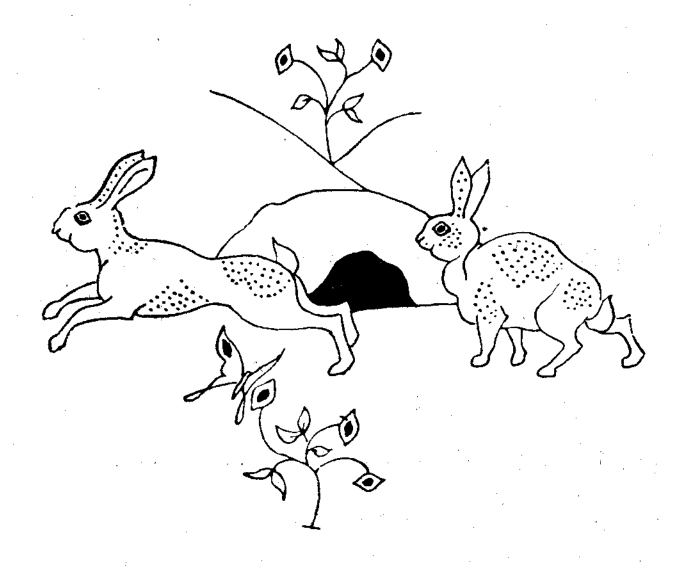
فلم يضيعا وقتاً بل أسرعا فى الصباح الباكر ليختارا مكانا مناسباً لتحقيق غرضهما ، فتسلقا بجهد ونصب بين

الصخور والشجيرات ، وعادا دون أن يكشفا أى جزء يشجع على تنفيذ خطتهما . وبنفس الطريقة قضيا اليومين الثانى والثالث بفشل وخيبة أمل . ولكن فى اليوم الرابع وجـدا كهفا صغيراً أخفته الشجيرات ، فقررا أن يجعلاه تجربتهم .

فأحضر إملاك آلات صالحة لقطع الأحجار وإزالة الأتربة ، واندفعا إلى عملهما فى اليوم التالى بلهفة عظيمة وقوة ضئيلة . ولما أنهكتهما جهودهما جلسا يلهثان على الأعشاب . وبدا الأمير وقتاً ما شبه يائس فقال الرفيق : «سيدى ! إن التدرب سيمكننا من الاستمرار فى عملنا وقتا أطول . فلاحظ على كل حال إلى أى حد قد تقدمنا ، وستجد أن عملنا سينتهى يوماً ما ، فإن الأعمال العظيمة لا تؤدى بالقوة بل بالجـد والمثابرة . وعلى مرمى البصر قصر شيد بأحجار مفردة ، ومع ذلك أنت ترى ارتفاعه واتساعه ، ومن مشى بقوة ثلاث ساعات كل يوم قطع فى سبعة أعوام مسافة تعادل محيط الكرة الأرضية » .

ثم عادا إلى عملهما يوما بعد يوم فلم يلبثا أن وجدا فتحة فى الصخر مكنتهما من المرور مسافة أبعد مع قليل جداً من العقبات . فعد راسلاس هـذا فألا حسنا ، وقال إملاك : « لاتشغل بالك بآمال أو مخاوف أخرى غير ماتؤيده الحكمة

والعقل ، فإنه إذا سرتك تنبؤات بالخير فقد تسوءك وتفزعك علامات للشر ، وتصبح حياتك كلها فريسة للخرافة . فكل مايسهل عملنا وييسره أكثر من فأل ، إنه سبب للنجاح . وهذه هى إحـــدى المفاجآت السارة التى تجزى بها العزائم الصادقة . وإن كثيراً من الأشياء يبدو صعباً فى الخطة والتصميم ثم تتضح سهولته عند الأداء والتنفيذ » .



الفصل الرابع عشر

راسلاس وإملاك يستقبلان زائرا غير منتظر

لقد شقا فى ذلك الوقت طريقهما إلى منتصفه ، وكانت سلواهما فى عملهما أنهما اقتربا من الحرية . وحينما نزل الأمير لينعش نفسه بالهواء الطلق وجد أخته « نكايه » واقفة أمام فتحة الهوة ، فدهش ووقف حائراً خائفاً أن يذيع خطته ، ويائساً فى الوقت نفسه من أن يخفيها . وفى لحظات قليلة صمم على أن يركن إلى وفائها ، ويحقق سرية الخطة بإعلانها لها إعلاناً لا يشوبه تحفظ .

وقالت الأميرة : « لا تتصور أننى جئت إلى هنا للتجسس . لقد لاحظتك أنت وإملاك طويلا من نافذتى تتجهان كل يوم إلى نفس البقعة ، غير أننى لم أظن أنه كان لديكما سبب لهذا خير من تلمس ظل أكثر رطوبة أو ضفة أذكى رائحة ، كما أننى لم أتبعكما بأى قصد آخر سوى أن أشارككما الحديث . ولما كان الحب لا الشك هو الذى

كشف أمركما فلا تدعى افقد مزايا كشفى . إننى مثلكما برمة بالسجن ، ولست أقل منكما رغبة فى معرفة ما يجرى فى العالم من أعمال وآلام . فاسمح لى أن أهرب معكما من هذا الهدوء الذى لا ذوق فيه ، وسأكون أشد كراهية له حينما تتركنى . وربما تنكر على مرافقتى لكما ، ولكنك لا تستطيع أن تمنعنى من اتباعكما » .

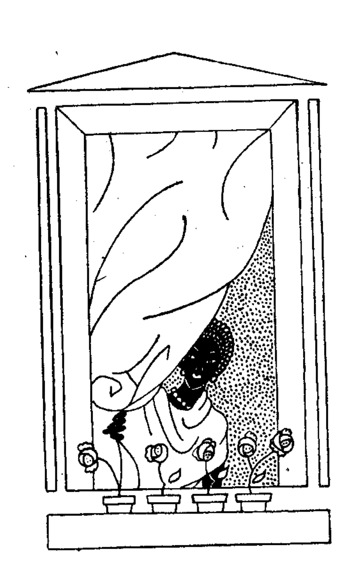
فلم يشأ الأمير أن يخيب رجاء نكايه وقد أحبها أكثر من أخواته الأخريات ، وحزن على فوات فرصة يظهر فيها مختارا ثقته بأخته ، وذلك بدعوتها للاشتراك فى هذه المغامرة . واستقر الرأى بناء على هذا أن تترك الوادى معهما ، وأنه يجب فى أثناء ذلك أن تأخذ حذرها خشية أن يتبعهم إلى الجبل أحد الضالين مصادفة أو مدفوعاً بحب الاستطلاع .

وانتهى أخيراً عملهما ، ورأيا نوراً خلف النتوء ، ولما تسلقوا إلى قمة الجبل شاهدوا النيل فى شكل مجرى ضيق يتنقل تحتهم .

نظر الأمير حوله وهو يكاد يطير فرحاً ، وتوقع كل ما يجلبه الترحال من مسرات ، أما فكره فقـــد انتقل إلى ما وراء مملكة أبيه . وأما إملاك فمع أنه كان سعيداً جدا لهربه إلا أنه

كان أقل توقعاً للمباهج والمتع فى عالم خبره وضاق ذرعاً به من قبل .

وأما راسلاس فقد بلغ ابتهاجه باتساع الأفق أمامه حداً لا يجدى معه إغراؤه بالعودة إلى الوادى . لقد أخبر أخته أن الطريق أصبح مفتوحاً ، وأنه لم يبق أمامهم سوى أن يستعدوا لرحيلهم .



الفصل الخامس عشر

الأمير والاميرة يتركان الوادى

ويريان عجائب عديدة

وكان للأمير والأميرة من الجواهر ما يغنيهما كلما ذهبا إلى مركز من مراكز التجارة ، وقد أخفياها بإرشاد إملاك فى ملابسهما . وفى الليلة التى اكتمل فيها القمر بدراً ثانية غادر الجميع الوادى . ولم يتبع الأميرة سوى وصيفة من وصيفاتها لم تكن تعلم إلى أين تقصد .

تسلقوا بمشقـــة عن طريق الهوة ، وبدأوا ينزلون من الجانب الآخر . ثم جالت الأميرة ووصيفتها بأعينهما فى كل مكان ، ولما لم تجدا حداً للفضاء حولهما اعتبرتا نفسيهما على شفا خطر التيه والضلال فى فضاء مرعب . فتوقفتا عن السير ، وارتعدت فرائصهما ، وقالت الأميرة : « إننى أكاد أرتجف عن أن أبدأ رحلة لا أستطيع أن أفهم لها نهاية ، وأن أجرؤ على الدخول فى سهل مترامى الأطراف حيث يحتمل أن يغير علينا من كل جانب أناس لم أرهم أبداً من قبل » . وشعر

الأمير بنفس الانفعالات تقريباً وإن كان قد ظن أن إخفاءها أليق بالرجولة .

وابتسم إملاك لانزعاجهما ، وشجعهما على الاستمرار فى السير ، غير أن الأميرة ظلت على حالة من عدم الاستقرار حتى وجدت نفسها وقد أمعنت فى البعد على غير شعور منها إمعاناً تتعذر معه العودة .

وفى الصباح وجدوا فى الحقل بعضاً من الرعاة قدموا لهم لبناً وثماراً ، ودهشت الأميرة لأنها لم تر قصراً معداً لاستقبالها ومائدة مليئة بأنفس الأطعمة الشهية الأنيقة . ولكن لما كانت هزيلة وجائعة شربت اللبن وأكلت الثمار . وخيل إليها أنهما ألذ طعماً مما ينتجه الوادى .

وواصلوا رحيلهم بتأن وتؤدة لأنهم لم يعتادوا العمل وتحمل المشقات ، ولأنهم عرفوا أنه حتى لو ضلوا الطريق لا يستطيع أحد أن يتبعهم . وفى أيام قليلة بلغوا منطقة أكثر ازدحاماً بالسكان . وأطرب إملاك إعجابُ رفاقه بتنوع الأخلاق والعادات واختلاف الناس فى درجاتهم وأعمالهم .

وكانت ثيابهم بشكل لا يثير الشك فى أنهم يخفون أى شىء فيها ، غير أن الأمير كان يتوقع أن يطاع حيثما

ذهب . وكان يُغضِب الأميرة أن هؤلاء الذين مثلوا بين يديها لم يسجدوا أمامها . وكان على إملاك أن يراقبهما بيقظة تامة خشية أن ينم سلوكهما غير المعتاد عن مركزهما ، فأطال مكثهما أسابيع عديدة فى أول قرية صادفوها حتى يعودا نفسيهما على رؤية العامة من البشر .

ثم تعلم الرحالتان الملكيان تدريجاً أن يفهما أنهما قد وضعا وقارهما جانباً إلى حين ، وأنه ليس لهما أن يتوقعا من الناس سوى ما يتفق مع السماحة والأدب . وصحبهما إملاك إلى شاطئ البحر من بعد أن أعدهما بالكثير من الإنذار والتحذير لتحمل صخب الميناء وخشونة المنافسات التجارية .

وقنع الأمير وأخته بجميع الأماكن على السواء لأن كل شئ كان جديداً لهما . ولهذا بقيا فى الثغر شهوراً دون أن تبدو عليهما الرغبة فى تجاوزه . وكان إملاك راضيا عن إقامتهما لأنه لم يعتقد أنه من السلامة فى شئ أن يعرضهما — غير مدربين فى الحياة — لأخطار بلد أجنبى .
وأخيراً بدأ يساوره الخوف من أن يفتضح أمرهما ، فاقترح أن يتحدد يوم لرحيلهم . ولم يطمعا فى أن يختارا لنفسيهما شيئاً معيناً بل تركا الخطة كلها لرأى إملاك

وتدبيره . فحجز أمكنة فى سفينة تقصد السويس . وحينما حان الوقت أقنع الأميرة بمشقة كبيرة أن تركب السفينة . وكانت رحلة سعيدة موفقة . ومن السويس رحلوا إلى القاهرة .



الفصل السادس عشر

يدخلون القاهرة ويجدون كل إنسان سعيداً

وحينما اقتربوا من المدينة التى ملأت الأغراب دهشة قال إملاك : « هذا هو المكان الذى يجتمع فيه الرحالون من جميع أركان الأرض . إنك تجد هنا أناساً من كل طبيعة ومهنة . والتجارة هنا مهنة شريفة ، وسأتظاهر بأنى تاجر ، أما أنتم فتعيشون كغرباء لا تبغون من وراء رحلتكم سوى الاستطلاع . وسيلاحظ بسرعة أننا أغنياء ، فتتيح لنا شهرتنا فرصة للوصول إلى جميع من نرغب فى التعرف بهم . وسترى الإنسانية فى جميع حالاتها ، ثم تستطيع أنت نفسك فى أى وقت شئت اختيار طريقك فى الحياة » .

دخلوا عندئذ المدينة دهشين للصخب والضجيج ، وبرمين بتزاحم الجماهير ، ولم يتغلب التطبع بعد على الطبع : فقد عجبوا لأنهم رأوا أنفسهم يمرون فى الطريق غير ملاحظين ، ويتصلون بأحط الطبقات دون أن يحترمهم أو يحفل بهم أحد . ولم تستطع الأميرة أولا أن تحتمل فكرة تسويتها بالسوقة والدهماء ، لذلك لزمت حجرتها أياماً حيث قامت على خدمتها وصيفتها « بكواه » كما كانت تفعل فى قصر الوادى .

وباع إملاك — وكان يفهم سبل التجارة — جزءاً من الجواهر فى اليوم التالى ، واستأجر بيتاً حلاه بمظاهر الفخامة والعظمة حتى إنه اعتبر فى الحال تاجراً على جانب عظيم من الثراء . وجذب أدبه الكثير إلى التعرف به ، كما جعله كرمه ملتقى الكثير من طلاب الحاجات ، فازدحم على مائدته أناس من كل أمة أعجبوا بمعارفه وألحوا فى طلب معروفه . ولما كان رفاقه لا يستطيعون الاشتراك فى المحادثة لم يكن من الممكن أن يكشفوا عن جهلهم أو دهشتهم ، بل تدرجوا فى العالم الجديد تدرجهم فى كسبهم معرفة اللغة .

وتعلم الأمير من المحاضرات طرق استعمال النقد وطبيعته ، أما السيدتان فلم تستطيعا لمدة طويلة أن تدركا ما فعل التجار بالقطع الصغيرة من الذهب والفضة ، أو لماذا تقـــدم هذه الأشياء الضئيلة الفائدة بوصفها معادلا لضرورات الحياة .

فدرس الأميران اللغة سنتين بينما كان إملاك يستعد ليقدم لهما الإنسان فى درجاته المتباينة وحالاته المختلفة : فتعرف على كل من كان فى حظه أو سلوكه شىء غير عادى ، وتردد كثيراً على المغالين فى ملذاتهم ، والمبالغين فى تقشفهم ، والخاملين والمجدين ، والتجار والعلماء .

ولما كان الأمير يستطيع وقتئذ أن يتحادث بطلاقة ،

وقد تعلم ما لا غنى عنه من الاحتراس لإخفاء شخصيته فى تعامله مع الغرباء ، بدأ يصطحب إملاك إلى المجتمعات ، وينضم إلى جميع المجالس علّه يستطيع اختيار طريقه فى الحياة .

وقد ظن وقتاً ما أنه لا حاجة إلى الاختيار فإن الجميع على ما يبدو له متساوون فى السعادة ، وحيثما ذهب وجد ابتهاجاً وشفقة ، وسمع أغنية الفرح أو ضحكة مبعثها هدوء البال . لقد شرع يعتقد أن العالم قد فاض بالخير العميم : فليست هناك حاجة لم تقض ، ولا جدارة لم توف حقها ، وكل يد قد سحّت سخاء ، وكل قلب قد ذاب شفقة وعطفاً . ثم يقول : « فمن ذا الذى يقدر له بعد ذلك البؤس والشقاء ؟ » .

وافق إملاك على هذا الوهم السار ، ولم يشأ أن يحطم الأمل القاصر حتى قال الأمير ذات يوم بعد أن جلس صامتاً هنيهة : « إننى لا أعرف السبب فى أننى أقل سعادة من أى واحد من أصدقائنا . إننى أراهم دائماً ومن غير تخلف مبتهجين ، لكننى أشعر بأن ذهنى قلق ومضطرب . إننى غير قانع بهذه المسرات التى أتظاهر بالسعى لها أكثر من غيرها . وأعيش بين جماهير اللهو لأهرب من نفسى أكثر من أن أتمتع بصحبتهم ، وأحدث ضجيجاً وفرحاً لأخفى همومى » .

قال إملاك : « قد يتكهن كل إنسان — باختباره عقله —

بما يجرى فى عقول الآخرين فاذا كنت تشعر أن مرحك متكلف فقد يعقل أن يؤدى بك هذا إلى الشك فى صدق المرح لدى رفاقك،وإذا كنت تحسدهم على سرورهم فانهم يحسدونك كذلك على سرورك ، فان الحسد غالباً متبادل .

ولابد أن يمضى وقت طويل قبل أن نقتنع بأن السعادة لا توجد مطلقاً ، غير أن كل واحد يعتقد بوجودها فى الآخرين ليحيي الأمل فى الحصول عليها لنفسه . وقد ظهر فى المجتمع الذى مررت به ليلة أمس مثل هذه الحيوية فى الجو والخيال المحلق فى الفضاء ، وهما أليق بكائنات من طبقة عليا خلقت لتعمر مناطق سعيدة آمنة لايرقى إليها الهم والأسى . ومع ذلك صدقنى أيها الأمير أنه لا يوجد إنسان لا يخشى اللحظة التى تدفعه فيها العزلة إلى أن يسيطر عليه التأمل » .

قال الأمير : « قد يصدق هذا على الآخرين بما أنه يصدق على ، ولكن مهما كان بؤس الإنسان عامة فلابد أن تتفاوت حالاته فى السعادة . والحكمة من غير شك هى التى توجهنا إلى أن نتوخى أقل قدر ممكن من الشر عند اختيار طريقنا فى الحياة » .

فأجاب إملاك : « إن أسباب الخير والشر مختلفة ومحدودة ، ويغلب أن يندمج بعضها فى بعض ، وأن تتنوع بعلاقات مختلفة ، وهى خاضعة لحوادث لا يمكن التنبؤ بها إلى درجة

أن من يحدد حالته بأسباب مختارة ومفضلة لا تقبل المناقشة والإنكار فانه لابد أن يعيش ويموت سائلا ومداولا » .

قال راسلاس : « لكن لا شك أن الحكماء — الذين نستمع لهم بإكبار وإعجاب — قد اختاروا لأنفسهم شكل الحياة الذى غلب على ظنهم أنه كفيل بإسعادهم » .

قال الشاعر : « قلما يعيش الإنسان بالاختيار : فكل إنسان قد وضع فى حالته الراهنة لأسباب لم يفطن إليها ، ولم يتعاون دائماً فى إيجادها تعاوناً إرادياً ، ولهذا ينــدر أن تصادف إنساناً لا يظن أن نصيب جاره خير من نصيبه » .

قال الأمير : « إننى لسعيد أن أعرف أن ميلادى قد منحنى على الأقل ميزة لم يمنحها الآخرون وذلك بإقدارى على أن أقرر لنفسى . ها هو ذا العالم أمامى ، سأنظر إليه نظرة فاحصة فى أى وقت شئت ، ولابد أن السعادة موجودة فى مكان ما » .



الفصل السابع عشر

الأمير يختلط بالشباب الممتلئ حيوية ومرحا

نهض راسلاس فى اليوم التالى ، وقرر أن يبدأ تجاربه على الحياة ، وصاح : « الشباب هو عهد البهجة . وسأصل نفسى بالشباب الذى همه الوحيد أن يشبع رغباته ، ويقضى جميع أوقاته فى متع متتابعة » .

وسمح له فى الحال أن يلتحق بأمثال هذه الجمعيات غير أنه عاد بعد أيام قليلة مجهداً ساخطاً ، فطرب هؤلاء الشبان كان ينقصه الخيال ، وضحكهم من غير باعث ، وملذاتهم حسية ونهمة ولم يسهم فيها العقل بنصيب ، وسلوكهم فى نفس الوقت جنونى وضيع . فقد سخروا من النظام والقانون غير أن صرامة القوة أغمتهم ، وعين الحكمة أخجلتهم .

وسرعان ما استنتج الأمير أنه لن يكون أبداً سعيداً فى ميدان من ميادين الحياة يندى جبينه لذكره ، وظن أنه

لايليق بكائن عاقل أن يعمل من غير خطة ، ولا أن يحزن أو يبتهج بمحض المصادفة ، ثم قال : « يجب أن تكون السعادة ثابتة دائمة لا يشوبها خوف أو ارتياب » .

غير أن صراحة رفاقه الشبان وأدبهم قد أكسباهم الكثير من احترامه وتقديره حتى إنه عز عليه أن يتركهم من غير تحذير أو اعتراض، فقال : « أصدقائى ، لقد فكرت جيداً فى أساليبنا وآمالنا فوجدت أننا قد أخطأنا الطريق إلى مصلحتنا الخاصة . فإن السنوات الأولى فى حياة الإنسان يجب أن تزوده لسنواته الأخيرة ، فيأخذ الإنسان من قوته لضعفه ومن شبابه لشيخوخته . ومن لا يفكر لا يكون أبداً حكيما ؛ والطيش المتواصل لا بد أن ينتهى بالجهل . والإفراط قد يشعل الروح ساعة ولكنه سيجعل الحياة قصيرة وبائسة . فلنقدر أن الشباب لا يدوم طويلا ، وأنه فى عهد النضج — حينما يزول سحر الخيال ، ولا تحوم حولنا أطياف البهجة — لا نجد الراحة سوى فى تقدير الحكماء وفى وسيلة العمل الصالح . فدعونا نقلع عن هذا — والإقلاع لا يزال فى مقدورنا — ونعش بوصفنا رجالا لابد أن يهرموا يوما ما ، وسيكون من أبشع الشرور لهم ألا يذكروا سنواتهم الماضية إلا بالحماقات ، وألا يذكرهم بازدهار صحتهم السالفة سوى

أمراضهم التى أحدثها شغبهم وعربدتهم » .

حملق بعضهم فى بعض برهة فى صمت ، وأخيراً أبعدوه بضحك عام متواصل .

ولم يشفع له الشعور بنبل عواطفه وحسن نيته فى تثبيت قدمه أمام تهكمهم الرهيب ، غير أنه استعاد هدوءه واستأنف بحثه .



الفصل الثامن عشر

الأمير يجد رجلا عاقلا وسعيداً

وبينما كان سائراً ذات يوم فى الطريق رأى بناء رحباً كانت أبوابه المفتوحة بمثابة الإذن للجميع بالدخول ، فتبع جموع الناس المتدفقة ، ووجده بهواً أو مدرسة للخطابة ، يلقى فيها الأساتذة المحاضرات لمستمعيهم . واستقرت عينه على حكيم ارتفع مكانه عن الباقين ، وتكلم بحماسة عظيمة عن ضبط الوجدان . وكان منظره مبجلا ، وعمله وقوراً ، ولفظه واضحاً ، وأسلوبه رقيقاً . وقد بين بحجج قوية وأنواع شتى من وسائل الإيضاح أن الطبيعة الإنسانية تتدهور وتنحط حينما تسود القوى الدنيا القوى العليا ، وأنه حينما يغتصب الخيال — مصدر الوجدان — مملكة العقل لن ينتج سوى الأثر الطبيعى : حكومة غير شرعية وانزعاج وارتباك . ويخون الخيال حصون العقل تأييداً للثائرين عليه ، ويثير بنيه للخروج على الحكمة سلطانهم الشرعى . وشبه العقل بالشمس ضوءها ثابت ومنسجم ودائم ، والخيال بالشهاب لا يكاد يلمع بريقه حتى يختفى ، وهو غير منتظم فى حركته ، وخادع فى اتجاهه .

ثم سرد المبادئ المتباينة التى تذكر من حين لآخر لضبط الوجدان ، وأوضح سعادة هؤلاء الذين حصلوا على النصر المبين الذى لم يعد الإنسان بعده عبداً للخوف ، ولا مخدوعاً بالأمل ، لم يعد هزيلا بالحسد ، ولا وقوداً للغضب ، ولا عنينا من فرط الحنان ، ولا مكتئباً بالحزن ، بل يسير هادئاً ساكناً فى شدة الحياة وتقلباتها ، كما تتم الشمس دورتها فى السماء الصافية والعاصفة على السواء .

وذكر أمثلة عديدة لأبطال لم يحركهم الألم أو السرور ، ونظروا غير مكترثين إلى هذه الأشكال أو الأعراض التى يسميها العامة خيراً وشراً . واستحث سامعيه على أن يتنزهوا عن الأغراض ، وأن يسلحوا أنفسهم أمام سهام الحقد والجد العاثر بالصبر الجميل . وختم كلامه بأن هذه الحالة لا غيرها هى السعادة ، وأن هذه السعادة فى مقدور كل إنسان .

استمع إليه راسلاس بالإكبار اللائق بتعليمات كائن ممتاز . وبعد أن وقف فى انتظاره بالباب التمس الإذن بزيارة السيد العظيم ذى الحكمة الحقة . وتردد المحاضر برهة حينما وضع راسلاس كيساً من الذهب فى يده ثم تقبله بمزيج من البهجة والدهشة .

قال الأمير لإملاك عند عودته : « لقد وجدت رجلا يستطيع أن يعلم كل ما يجب أن يعرف ، رجلا يرقب من

عرش حكمته المكين مناظر الحياة تضطرب تحته . إنه يتكلم والانتباه يعلق بشفتيه ، ويفكر والإقناع يختم كلامه . وسيكون هذا الرجل مرشدى فى المستقبل . سأتعلم نظرياته، وأقلد حياته » .

قال إملاك : « تريث فى ثقتك وإعجابك بمعلمى الأخلاق ، فإنهم ملائكة حين يتكلمون ، وأناسى حين يعيشون » .

وزاره راسلاس بعد أيام قليلة لأنه لم يستطع أن يفهم كيف يستطيع إنسان أن يفكر بمثل هذه القوة من غير أن يكون مقتنعاً بما يقول ، غير أنه لم يسمح له بالدخول . وكان قد عرف وقتئذ قوة المال فشق طريقه بقطعة من الذهب إلى الغرف الداخلية . وهناك وجد الفيلسوف فى حجرة نصف مظلمة شاحب اللون وعلى بصره غشاوة ، وقال : « لقد أتيت ياسيدى فى وقت لا ينفع فيه أى نوع من أنواع الصداقة الإنسانية ، إذ لا سبيل إلى علاج ما أعانى ، ولا وسيلة إلى رد ما فقدت ، فابنتى — ابنتى الوحيدة — قد ماتت بالحمى ليلة أمس ، وقد كنت أمنى نفسى فى ظل حنوها بجميع وسائل الراحة فى شيخوختى . لقد انتهت جميع آرائى وأهدافى وآمالى . وأنا وحيد الآن بانفصالى عن المجتمع » .

قال الأمير : « سيدى إن الفناء حدث لا يمكن أبداً أن يفاجئ الحكيم . فنحن نعلم أن الموت دائماً قريب ، ولهذا لا ينبغى أن يُغفَل عن ذكره فى أى وقت من الأوقات » .

أجاب الفيلسوف : « أيها الشاب إنك تتكلم كلام إنسان لم يشعر أبداً بآلام الفراق » . قال راسلاس : « أنسيت إذن المبادئ التى أيدتها بقوة ؟ أليس فى استطاعة الحكمة أن تسلح القلب أمام النكبات ؟ فلتدرك أن المظاهر متغيرة بالطبيعة ، لكن الحقيقة والحكمة لا تتغيران أبداً » .

قال الحزين : « أى راحة تستطيع الحقيقة والحكمة أن تقدماها لى ، وما قيمتهما لى الآن سوى أن تخبرانى بأن ابنتى لن تعود ؟ » .

ثم خرج الأمير الذى لم تسمح له إنسانيته أن يؤنب الفيلسوف فى بؤسه موقناً بأن الأصوات البلاغية الجوفاء عبث ، وأن الكلام المصقول والجمل المنمقة هراء .



الفصل التاسع عشر

لمحة فى حياة الرعاة

وكان لايزال مشغوفاً بنفس البحث ، فلما سمع عن زاهد بالقرب من الجندل الأسفل للنيل وقد ملأ البلاد بشهرة قداسته قرر أن يزوره فى صومعته ليبحث عن السعادة — التى لم تستطع الحياة العامة أن تقدمها — هل هى موجودة فى حياة العزلة ، وهل الرجل — الذى أكسبته شمائله وسنه الاحترام — يستطيع أن يعلم فناً خاصاً لتجنب الشرور أو احتمالها ؟

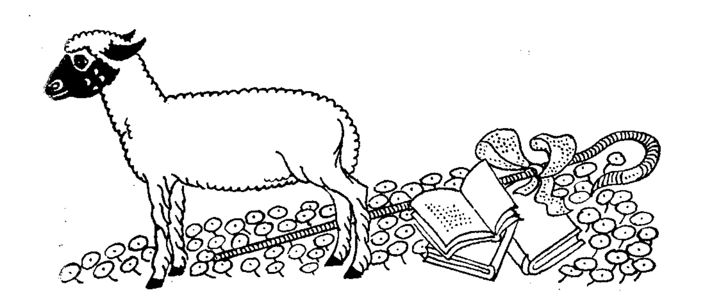
وافق إملاك والأميرة على أن يرافقاه ، وبعد أن أعدوا العدة اللازمة بدأوا رحلتهم . وكان طريقهم يقع بين الحقول حيث كان الرعاة يعنون بقطعانهم ، وحيث كانت الحملان ترتع فى مراعيها . قال الشاعر : « هذه هى الحياة التى اشتهرت غالباً ببراءتها وسكونها ، فلنقض ظهيرة اليوم بين

خيام الرعاة لنعرف هل ستنتهى أبحاثنا بالبساطة التى يتصف بها هؤلاء الرعاة ».

فسره الاقتراح ، وأغروا الرعاة بالهدايا الصغيرة والأسئلة التى تزيد الألفة بينهم أن يبدوا آراءهم فى حالتهم . وكانوا جهلة ، وفى أخلاقهم جفوة ، ولم يستطيعوا إلا قليـــلا أن يوازنوا بين حسنات حرفتهم ومساوئها ، كما كانوا مبهمين فى قصصهم وأوصافهم إلى حد أنه لم يتعلم منهم سوى النزر اليسير . لكن كان من الواضح البين أن قلوبهم مكلومة بالسخط ، وأنهم اعتبروا أنفسهم مقضيا عليها بالكد والشقاء لينعم الأغنياء بحياة البذخ والترف . ونظروا بحقد غاشم إلى هؤلاء الذين ارتفعوا فوقهم درجات .

وتكلمت الأميرة بعنف قائلة إنها لن تسمح أبداً لهؤلاء الحسدة من الهمج أن يكونوا رفاقا لها ، وإنه لاينبغى لها أن تتسرع فى رغبتها أن ترى المزيد من نماذج السعادة الريفية ، غير أنها لم تستطع أن تعتقد أن أخبار المسرات البدائية جميعها خرافية ، ومع ذلك كانت تشك فى أن للحياة ما يمـــكن تفضيله تفضيلا عادلا على القناعة الهادئة بالحقول والغابات ،

وارتجت أنه سيأتى الوقت الذى تجمع فيه الأزهار من غرس يدها بصحبة القليل من الرفاق الفضليات الرقاق ، وتداعب صغار شاتها ، وتنصت من غـــير عناء ولا ملل بين السواقى والنسيم إلى إحدى وصيفاتها تقرأ فى الظل الظليل .



الفصل العشرون

مساوىء الرخاء والتوفيق

واصلوا رحلتهم فى اليوم التالى حتى اضطرتهم حرارة الشمس إلى أن يبحثوا عن ظلة يحتمون بها . فرأوا على مسافة قصيرة غابة كثيفة الأشجار ما كادوا يدخلونها حتى أدركوا أنهم يقتربون من مساكن آهـــلة بالسكان : فقد كانت الشجيرات مسواة بعناية بحيث تترك ممرات تظلها أفنان لم تدع للضوء فيها منفذاً ، وكانت غصون الأشجار المتقابلة متشابكة تشابكاً مصطنعاً ، وقد أقيم فى الأماكن الخالية أرائك من الحشائش تتخللها أزهار وجدول كان يتهادى على طول الطريق المتعرج ،وقد صبت ضفتاه أحياناً فى حياض صغيرة ، وعوق جريانه آونة تلال مصطنعة تراكمت لتزيد من قوة خريره.

ومشوا الهوينى خلال الغابة ، وابتهجوا بمثل هذا المأوى غير المنتظر ، وسلى بعضهم بعضاً بالتكهن عن الشخصية التى كان لها من الفراغ والفن ما مكنها من هذا الترف السار فى مثل هذه المناطق الخشنة الموحشة .

وحينما تقدموا فى المسير سمعوا نغم الموسيقى ، ورأوا الشباب والعذارى يتراقصون فى الغابة . ولما ذهبوا أبعدشاهدوا

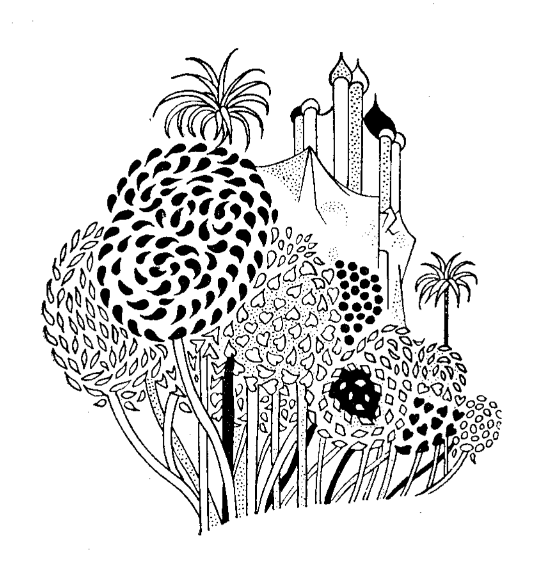
قصراً تلوح عليه سيما العظمة والمهابة مبنيا على تل ، ومحاطاً بالغياض . وسمحت لهم تقاليد الضيافة الشرقية بالدخول ، فرحب بهم السيد ترحيب رجل ثرى سخى .

وقد بلغت مهارة المضيف مبلغاً جعله يكشف بسرعة أنهم ليسوا ضيوفاً عاديين ، فبسط مائدته بسطاً فخماً ، واسترعى انتباهه فصاحة إملاك ، وأثار احترامه أدب الأميرة السامى . وحينما تقدموا للرحيل ألح عليهم فى البقاء ، وكان أكثر إلحاحاً فى اليوم التالى ، وكان من السهل إغراؤهم بالمكث ، وتطور أدب المجاملة إلى الثقة ورفع الكلفة .

ورأى الأمير وقتئذ أن جميع الخدم مبتهجون ، وأن وجه الطبيعة مبتسم حول المكان ، ولم يستطع أن يمنع نفسه من الأمل فى أنه سيجد هناك ما كان ينشده ، وحينما كان يهنئ السيد بضياعه أجابه متأوها : « لحالى من غير شك مظهر السعادة ، لكن المظاهر خداعة ، فإن توفيقى قد وضع حياتى فى خطر ، وباشا مصر هو عدوى محنقاً بثرائى وقربى من قلوب الناس . ولقد حمانى منه إلى الآن أمراء المملكة . لكن لما كان معروف الأمراء غير دائم فإننى لا أعرف متى يُغرَى حماتى باقتسام الغنيمة مع الباشا . لقد أرسلت كنوزى إلى مملكة نائية ، وأنا على استعداد لاقتفاء أثرها عند أول إنذار .

وعندئذ سيشغب أعدائى فى دارى ، وينعمون بالحدائق التى قد غرستها » .

فاشترك الجميع فى الرثاء له للخطر المحدق به ، وأبدوا أسفهم لنفيه ، وانتاب الأمـــيرة مزيج من الحزن والسخط جعلها تأوى إلى مخدعها . واستمروا مع مضيفهم الشفيق أياماً قليلة أخرى ، ثم توجهوا ليبحثوا عن الزاهد .



الفصل الواحد والعشرون

سعادة العزلة — حياة الزاهد

وصلوا فى اليوم الثالث بإرشاد الفلاحين إلى صومعة الزاهد ، وكانت عبارة عن كهف فى جانب الجبل يظلله النخيل ، وعلى مسافة عظيمة من الجندل بحيث لا يسمع فى الكهف سوى خرير رتيب رقيق أعد العقل لتأملات حزينة ، وخاصة حينما يزيده حفيف الأشجار قوة . وقد تحسن عمل الطبيعة البدائى بفعل الإنسان : فاحتوى الكهف على أقسام كثيرة استعملت فى أغراض مختلفة ، وصلحت غالباً سكناً للرحالين الذين أدركهم الظلام والزوابع فى الطريق .

جلس الزاهد على أريكة بالقرب من الباب لينعم بنسيم المساء العليل ، وقد وُضِـع فى جانب كتاب وأوراق وأقلام ، وفى جانب آخر أنواع شتى من أدوات الرياضة . وحينما اقتربوا على غفلة منه لاحظت الأميرة أنه لا يبدو عليه مظاهر رجل وجد الطريق إلى السعادة أو استطاع أن يدل عليه .

وحيوه باحترام عظيم ، فرد التحية رد رجل ألف أساليب القصور ، ثم قال : « يا بنى إن كنتم قد ضللتم الطريق فستزودون لمدة ليلة بكل وسائل الراحة حسبما تسمح

به ظروف هذا الكهف . إن لى كل ما تتطلبه الطبيعة فلا تنتظروا أنفس الأطعمة الشهية الأنيقة فى صومعة زاهد » .

فشكروه ، ولما دخلوا سرتهم أناقة المكان وانتظامه ، وقدم لهم الزاهد لحماً ونبيذا ، مع أنه اقتصر فى طعامه على الفاكهة والماء . وكان حديثه مرحاً من غير خفة ، وتقياً من غير حماسة . وسرعان ما كسب تقدير أضيافه ، وندمت الأميرة لتسرعها فى الحكم عليه .

وأخيراً بدأ إملاك على النحو الآتى : « إننى لا أعجب الآن من أن شهرتك قد طبقت الآفاق ، فقد سمعنا عن حكمتك فى القاهرة ، وجئنا إلى هنا نلتمس توجيهك لهذا الشاب وهذه السيدة فى اختيارهما طريق الحياة » .

أجاب الزاهد : « كل شكل من أشكال الحياة خير لمن يعيش عيشة صالحة . وإنى لا أستطيع أن أعطى قاعدة للاختيار سوى أن يُبْتعد عن جميع الشرور الظاهرة » .

قال الأمير : « إن من يهب نفسه للعزلة التى زكيتها بقدوتك الصالحة لا بد أن يتجنب الشر » .

قال الزاهد : « لقد قضيت فى العزلة خمس عشرة سنة ، غير أننى لا أود أن تكسب قدوتى أى مقلدين . لقد التحقت بالسلاح فى شبابى ، ورقيت إلى أسمى الدرجات العسكرية ، وعبرت ممالك شاسعة على رأس كتائبى ،

وشهدت مواقع كثيرة وألواناً من الحصار . ولما ضقت أخيراً بتفضيل ضابط شاب على شخصى ، وشعرت بأن قوتى آخذة فى الهبوط قررت أن أختم حياتى فى سلام بعد أن وجدت العالم مليئاً بالمكائد والشقاق والبؤس . وكنت قد نجوت مرة من مطاردة العدو بفضل حماية هذا الكهف ، ولهذا اخترته مقراً لى مدى الحياة . ولقد استخدمت عمالا ليحولوه إلى حجر ، وملأته بكل ما يحتمل أن أحتاج إليه .

« وابتهجت بانصرافى عن العالم كما يبتهج الملاح عند دخوله الميناء بعد أن عصفت بسفينته الزوابع والأعاصير ، وذلك للتغير المفاجئ من جلبة الحرب وسرعتها إلى الدعة والراحة . ولما انتهى السرور بالجِدّة قضيت ساعاتى فى اختبار أنواع النبات التى تنمو فى الوادى ، والمعادن التى جمعتها من بين الصخور ، غير أن البحث أصبح فى الغالب مملا ومجهداً . لقد كنت أحياناً قلقاً ومبلبل الفكر ، وعقلى مضطرب بألف من ارتباكات الشك ومظاهر الخيال التى تستولى على دائماً لأننى لا أجد فرصة للراحة ولا للتسلية . إننى أخجل أحياناً من أن أفكر فى أننى لا أستطيع أن أصون نفسى من الرذيلة إلا بالبعد عن مزاولة الفضيلة . وقد بدأت أشك فى أننى كنت مدفوعاً إلى العزلة بالسخط لا بالتقوى . إن خيالى يخبط خبط عشواء فى أوهام جنونية ، وإننى أرثى

لحالى لأننى فقدت أكثر من الكثير ولم أكسب إلا أقل من القليل . وإذا كنت قد نجوت بالعزلة من القدوة السيئة فإنه يعوزنى فى الوقت ذاته نصيحة الصالحين وحديثهم . ولقد وازنت طويلا بين شرور المجتمع ومزاياه ، وقررت أن أعود غداً إلى العالم . إن حياة المنعزل ستكون من غير شك بائسة ، لكنها ليست يقينا تقية » .

فدهشوا لقراره ، وبعد فترة قصيرة اقترحوا أن يصحبوه إلى القاهرة ، فحفر وأخرج كنزاً عظيماً كان قد أخفاه بين الصخور ، ثم رافقهم إلى المدينة ، وحينما اقترب منها نظر إليها مفتوناً بمباهجها .



الفصل الثانى والعشرون

سعادة حياة وجهت حسب الطبيعة

وكثيراً ما اختلف راسلاس إلى مجلس من العلماء اجتمعوا فى أوقات معينة ليحلوا عقدة عقولهم ، ويوازنوا بين آرائهم . وكان جدالهم حاداً ، وقد بلغ أحياناً غاية العنف ، واستمر غالباً حتى نسى المتجادلون الموضوع الأصلى لجدلهم . وكانت هناك أخطاء شائعة بينهم : فكل واحد كان يرغب أن يملى على البقية ، وكان يلذ لكل فرد أن يستمع إلى الاستخفاف بعبقرية الآخر ومعارفه .

وكان راسلاس يقص فى هذا المجلس حديثه مع الزاهد واستغرابه حينما سمعه يزرى بأسلوب فى الحياة كان قد اختاره بإرادته وتبعه حامداً قانعاً . فاختلفت آراء السامعين : فرأى البعض أن الحكم عليه بالسجن الدائم كان العقوبة العادلة لحماقته فى الاختيار ، ورماه بالنفاق واحد من أحدثهم سناً وهو فى حالة شديدة من الهياج والعنف ، وتكلم البعض عن حق الجماعة فى عمل الأفراد ، واعتبر العزلة هروباً من الواجب ، وأقر آخرون أنه يأتى وقت توفى فيه حقوق الجماعة على الفرد فيحق له أن يعزل نفسه عزلا تاما حتى يعيد النظر فى حياته وينقى قلبه .

وظن واحد — كان أكثر تأثراً بالقصة من الباقين — أن من المحتمل فى سنوات قليلة أن يعود الزاهد إلى عزلته، وربما عاد مرة أخرى من عزلته إلى العالم إذا لم يمنعه الحياء أو يعترض طريقه الموت . ثم قال : « لأن الأمل فى السعادة أقوى من أن يمحوه أطول التجارب . إننا نشعر بالبؤس فى الحالة الراهنة مهما كانت — ولا بد من أن نعترف بذلك — ومع هذا حينما تبتعد نفس الحالة عنا يصورها لنا الخيال شيئاً مرغوباً فيه ، ولكن سيأتى حتما الوقت الذى لا تصبح فيه الرغبة سبب شقائنا ، ولا يكون الإنسان شقيا إلا بخطئه هو نفسه .

وقال فيلسوف كان قد سمعه وعلامات الجزع بادية عليه : « هذه فعلا هى الحالة الراهنة بالنسبة للعقلاء . لقد جاء فعلا الوقت الذى لا يكون فيه الإنسان بائسا إلا بخطئه هو نفسه ، وليس هناك أكثر خمولا من أن يبحث عن السعادة التى تعطفت الطبيعة بوضعها فى متناول يدنا . فطريق السعادة هو أن تعيش حسب الطبيعة بإطاعة ذلك القانون العالمى الدائم الذى تأثر به كل قلب فى بدء تكوينه ، والذى لم يخطه عليه مبدأ لكن حفره القدر ، ولم يلقن بالتربية بل ولد معنا . فمن عاش حسب الطبيعة فانه لن يعانى شيئا من خدع الأمل ولا إلحاح الرغبة ، وسيتقبل الأمور ويرفضها

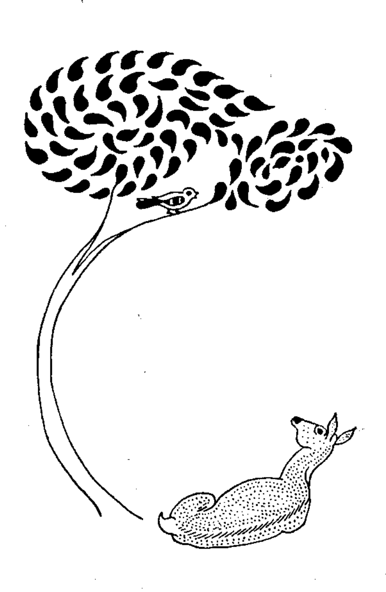
بحالة واحدة من اعتدال المزاج ، وسيعمل تارة أو يعانى تارة أخرى حسبما يمليه منطق الأشياء ، وسيسلى الرجال الآخرون أنفسهم بالتعريفات الدقيقة أو الأقيسة المنطقية المعقدة . فليتعلموا أن يكونوا عقلاء بوسائل أسهل ، وليتأملوا وعل الأجمة وعصفور الغيضة ، وليعتبروا بحياة الحيوان الذى تنظم حركاته الغريزة : إنه يطيع رائده فيعيش سعيداً . اطرحوا جانباً عوائق المبادئ التى لا يفهمها أولئك الذين يتشدقون بها فى صلف وفخر ، ولنتذكر دائما تلك البديهية البسيطة المعقولة : الانحراف عن الطبيعة انحراف عن السعادة » .

وبعد أن تكلم نظر حوله نظرة تنم عن الرضا ، وطاب له أن يشعر بعمله الخير ، وقال الأمير فى تواضع تام : « سيدى ، بما أنى — كغيرى من الناس — راغب فى السعادة كنت منتبها بجميع جوارحى إلى مقالتك ، وإنى لا أشك فى صدق رأى قدمه رجل على هذا الجانب العظيم من المعرفة تقديم الواثق مما يقول ، ولست أطلب سوى أن أعرف كيف أعيش حسب الطبيعة » .

قال الفيلسوف : « حينما أجد شبابا متواضعين ومطيعين إلى هذا الحد لا أضن عليهم بالمعرفة التى مكنتنى من تقديمها دراساتى . العيش حسب الطبيعة هو أن يعمل الإنسان مع الاعتبار الواجب للصلاحية الناشئة عن علاقات الأسباب

والمسببات وخصائصهما ، وان يتفق مع الخطة العظيمة الثابتة للسعادة العالمية ، وأن يتعاون مع الاستعداد والميل العام لنظام الأشياء الحاضر » .

وسرعان ما وجد الأمير أن هذا أحد الحكماء الذين يقل فهمه لهم كلما طال استماعه إليهم ، لذلك انحنى وصمت . ونهض الفيلسوف ظانا أن الأمير قد اقتنع ، وأن الباقين قد سقط فى أيديهم ، وغادر المكان مغادرة رجل كان قد تعاون فى إدارة النظام الحاضر للكون .



الفصل الثالث والعشرون

الأمير وأخته يقتسمان القيام بالملاحظة

عاد راسلاس إلى البيت مستغرقاً في التأملات، متردداً في اختيار الطريقة التي يوجه بها خطواته المستقبلة، لقد وجد أن العلماء والسذج على السواء يجهلون الطريق للسعادة، غير أنه لما كان لا يزال شاباً طمأن نفسه بأن الوقت سيتسع لتجارب أخرى ولمزيد من البحوث. وأعرب لإملاك عن ملاحظاته وشكوكه، فأضاف بإجابته شكوكاً جديدة وملاحظات لم تدع له سبيلا للراحة، ولهذا زاد من التحدث إلى أخته بصراحة أكثر. وقد كان لها هي أيضاً نفس الأمل، وساعدته دائماً في البحث عن سبب عدم توفيقه إلى ذلك الوقت واحتمال توفيقه في النهاية.

ثم قالت: «إننا لم نعرف إلى الآن سوى القليل عن العالم، ولم نكن أبداً في أعمالنا عظماء ولا من الدهماء. ومع أنه كان الملك فينا في بلادنا لم تكن لنا سلطة، ولم نر بعد في هذه البلاد الجوانب الخاصة بسلام الأسرة. وإملاك لا يشجع بحثنا خشية أن نجده في الوقت المناسب مخطئاً. سنقتسم العمل بيننا فتحاول أنت ما يوجد في أبهاء

القصور الفخمة . أما أنا فأجوس خلال الظلال فى الحياة المتواضعة . وربما يكون الأمر والسلطان هما النعمة العظمى لأنهما يهيئان فرصاً أكثر لفعل الخير ، وربما يوجد بين السكان المتواضعين من ذوى الحظ الوسط ما تستطيع هذه الحياة منحه من سعادة ، فهم أحط من أن يسموا إلى الخطط العظيمة ومسئولياتها ، وأسمى من أن ينحدروا إلى درجة العوز والضيق وآلامهما » .



الفصل الرابع والعشرون

الأمير يلتمس السعادة فى الطبقات العليا

حبذ راسلاس الخطة ، وظهر فى اليوم التالى محاطاً بحرس فخم فى قصر الباشا ، وسرعان ما احتل مركزاً ممتازاً لسمو منزلته ، وسمح له أن يتصل اتصالا وثيقاً بالقادة ، وأن يتحادث فى أغلب الأوقات مع الباشا نفسه بوصفه أميراً أتى به حب استطلاعه من بلاد نائية .

ومال أول الأمر إلى الاعتقاد بأن الرجل الذى يقترب منه الجميع مبجلين ، ويصغون إليه مطيعين ، وتخوله سلطته أن يصدر أوامره إلى مملكة بأسرها لابد أن يكون سعيداً . ثم قال : « لا يمكن أن يوجد سرور يعادل سرور الشعور ببهجة آلاف جعلتهم الإدارة الحكيمة جميعاً سعداء ، ومع ذلك لما كانت هذه المتعة السامية لا تكون — بسبب قانون التبعية — إلا من حظ فرد واحد فى الأمة الواحدة ألا يكون من المعقول جداً أن نظن أن هناك نوعاً آخر من القناعة أكثر ذيوعاً وأقرب حصولا ، وأنه يتعذر أن تخضع الملايين لإرادة رجل

واحد لا لغاية سوى أن تملأ صدره برضا لا شريك له فيه؟ ».

وكثيراً ما جالت هـذه الأفكار فى خاطره ولم يجد حلا للمشكلة . لكن لما كانت الهدايا والأساليب المهـذبة قد أكسباه صداقة أكثر توثقاً وجد أن كل رجل تقريباً شغل منصباً سامياً فى العمل أبغض جميع الباقين وأبغضوه ، وأن حياتهم كانت سلسلة متتابعة مستمرة من المؤامرات والتجسس والخداع والهرب والتحزب والغـدر . والكثير ممن أحاطوا بالباشا أرسلوا إليه ليراقبوا سلوكه ، ويكتبوا التقارير عنه ، فكان كل لسان يتمتم باللوم ، وكل عين تبحث عن خطأ .

وأخيراً وصلت رسائل الاسـتدعاء ، وحمل الباشا مكبلا بالأصفـاد إلى القسطنطينية ، ولم يعد يذكر اسمه بعد ذلك .

ثم قال راسلاس لأخته : « ما الذى يجب علينا أن نظنه الآن بما تمنحه السلطة من امتيازات ؟ أليس فيها عون للخير ؟ أو هل الطبقة التابعة وحدها خطرة وصاحبة السلطان آمنة ومجيدة ؟ هل السلطان هو الشخص الوحيد السعيد فى مملكته أو السلطان نفسه خاضع لآلام الشك وإفزاع الأعداء ؟ » .

ولم يلبث الباشا الثـــانى أن خلع ، واغتال الجنود الانكشارية السلطان الذى عينه ، وكان لخلفه آراء أخرى وأخصاء مختلفون .



الفصل الخامس والعشرون

الأميرة تتابع بحثها مجتهدة أكثر منها ناجحة

واندمجت الأميرة أثناء ذلك فى كثير من الأسر ، فقد كان هناك قليل من الأبواب لم يجد كرمها – مصحوباً بروح فكاهتها العذبة – طريقه إليها . وكان الكثير من بنات الأسر مليئات حيوية ومرحاً ، غير أن نكايه اعتادت محادثة إملاك وأخيها إلى درجة لم تعد تسر معها بخفة الأطفال وثرثرتهم التى لا معنى لها . فقد وجدت أفكارهن محدودة ، ورغباتهن وضيعة ، وبهجتهن غالباً مصطنعة ، ولم يكن من الممكن الاحتفاظ بمسراتهن نقية ، وإن كانت ضئيلة ، بل كانت مشوبة بالمباريات الحقيرة ، والمنافسات التى لا غناء فيها . وكان يغار بعضهن دائماً من جمال بعض ، والجمال صفة لا تستطيع المحاباة أن تضيف إليها شيئاً ، كما لا يستطيع الانتقاص أن يسلبها شيئاً . وكثير منهن كن يعشقن من على شاكلتهن فى التفاهة . ويخيل للكثير أنهن عاشقات ، وإن لم يكن فى الحقيقة سوى عابثات . وندر أن يؤسس غرامهن

على الحكمة أو الفضيلة ، ولهذا قلما ينتهى بشيء سوى المشادة والحقد . وكان حزنهن كفرحهن على كل حال سريع الزوال . ولم يرتبط شيء مما طفا على عقولهن بالماضى أو المستقبل ، ولهذا ما أيسر ما فسحت الرغبات الطريق بعضها أمام بعض ، كما يمحو الحجر الثانى — وقد ألقى به فى الماء — دوائر الحجر الأول .

لقد لعبت مع هؤلاء البنات كما تلعب مع الحيوان الأليف ، ووجدتهن فخورات بطلعتها برمات بصحبتها .

ولكن كان هدفها أن تتعمق فى اختبارها . وما أيسر ما أغرت بشاشتها القلوب التى كانت تفيض حزناً أن تفضى إلى أذنها بأسرارها ، واستعطفها هؤلاء اللائى طمأنهن الأمل وأطربهن الرخاء أن تشاطرهن سرورهن .

وكانت الأميرة وأخوها يتقابلان عادة مساء فى بيت صيفى خاص على ضفة النيل ليقص كل منهما على الآخر حوادث اليوم . وبينما كانا يجلسان معاً وقع نظرها على النهر الذى جرى أمامها ، ثم قالت : « استجب يا أبا الأنهار العظيم ، يامن تفيض فى ثمانين أمة ، لدعاء ابنة ملكك الوطنى . خبرنى إن كنت تروى فى طول مجراك ساكناً واحداً لا تسمع منه أنين الشكوى » .

قال راسلاس : « لستِ إذن فى البيوت الخاصة بأنجح منى فى بلاط القصور » .

قالت الأميرة : « لقد مكنت نفسى منذ اقتسامنا القيام بالملاحظة من أن أتصل اتصالا وثيقاً بالكثير من الأسر حيث كان يرفرف أبهى مظاهر الرخاء والسلام ، ولا أعرف بيتاً واحداً لم يسكنه ضرب من الجنون لا يدع للهدوء أثراً .

« إننى لم أنشد الدعة بين الفقراء لأننى استنتجت أنه لا يمكن وجودها بينهم . لكننى رأيت كثيراً من الفقراء ظننتهم يعيشون فى بسطة من الرزق ، فإن للفقر فى المدن الكبيرة مظاهر مختلفة جداً ، إذ كثيراً ما يحجبه الرونق ، ويخفيه الإسراف . إن قسماً عظيماً جداً من الناس يعنى بأن يحجب فاقته عن الباقين ، ويقيم أوده بمظاهر موقتة ، ويقضى كل يوم فى ابتكار ما يعمل فى غده .

« وهذا على كل حال شر ، ومع أنه شائع بينهم إلا أننى نظرت إليه وأنا أقل تألماً لأننى استطعت أن أجنبهم إياه ، غير أن البعض رفض كرمى ، وكان شعورهم بجرح كرامتهم ، بسبب تسرعى فى كشف حاجاتهم ، أشد من سرورهم باستعدادى لإغاثتهم . ولم يستطع أبداً آخرون — ممن اضطرتهم

الحاجة إلى تقبل عطفى — أن يغمروا لولية نعمتهم . على أن كثيرين منهم كانوا صادقين فى عرفانهم بالجميل من غير مباهاة بشكر أو أمل فى أياد أخرى » .



الفصل السادس والعشرون

الأميرة تمضى فى ملاحظاتها على الحياة الخاصة

بعد أن أدركت نكايه أن أخاها منتبه إليها تابعت قصتها قائلة : « وهناك عادة شقاق فى الأسر الفقيرة وغير الفقيرة. وإذا كانت المملكة - كما يخبرنا إملاك - أسرة كبيرة فالأسرة أيضاً مملكة صغيرة ممزقة بالأحزاب ، ومعرضة للثورات . ويتوقع الملاحظ غير الخبير أن حب الآباء والأبناء ثابت ومتعادل ، غير أن هذا العطف قلما يتجاوز سنى الطفولة ، وسرعان ما يصبح الأبناء منافسين للآباء . وإحسان الآباء إلى الأبناء يحط من شأنه التأنيب ، كما أن عرفان الأبناء بجميلهم يفسده الحسد .

« ويندر أن يعمل الآباء والأبناء متفقين ، وكل ابن يجاهد ليستأثر بتقدير أبويه أو حبهما . والآباء - حتى بإغراء أقل - يخون بعضهم بعضاً بتنافسهم على الاستئثار بحب الأبناء وتقديرهم . فبعض الأبناء - نتيجة لهذا - يضع ثقتــه فى الأب ، والبعض فى الأم ، ويملأ البيت تدريجا بصنوف الحيل وضروب الشقاق .

« وآراء الأبناء والآباء ، الشباب والشيوخ ، بالطبيعة

متعارضة نتيجة للتناقض بين آثار الأمل واليأس ، وبين التطلع للمستقبل والخبرة الماضية من غير أن يقع أحدهما فى جريمة أو حماقة . وألوان الحياة فى الشباب والشيخوخة تبدو مختلفة اختلاف وجه الطبيعة فى الربيع والشتاء . فكيف يضمن الأبناء ما يزعمه الآباء وأعينهم تراه باطلا ؟

« وما أقل الآباء الذين يجعلون حياتهم قدوة صالحة طبقاً للمبادئ التى يدينون بها . والشيخ يثق ثقة تامة فى الابتكارات البطيئة والتقدم التدريجى . أما الشباب فإنه يتوقع أن يشق طريقه بالنبوغ والقوة والاندفاع . الشيخ ينظر إلى الثروة ، والشباب يحترم الفضيلة . الشيخ يؤله الحرص ، والشباب يهب نفسه للمروءة ، ويترك مصيره للفرص . الشاب الذى لا يضمر الشر يعتقد فى سلامة الطوية فيعمل — على هذا — فى صراحة وحسن نية ، ولكن أباه الذى عانى مضار الخداع مدفوع للشك ، ويغلب جداً أن تسحره ممارسته . الشيخوخة يغضبها تهور الشباب ، والشباب يزدرى حذر الشيخوخة . وكلما طالت حياة الآباء قل فى غالب الأحيان تحابهم . وإذا كان هؤلاء — الذين وحدت بينهم الطبيعة على هذا النحو من القرب — بعضهم لبعض محنة وشقاء فأين نبحث عن الحنو والعزاء ؟ » .

قال الأمير : « طبعـــاً لابد أنك كنت سيئة الحظ فى

اختيارك هذا النوع من التعارف . إننى لا أود أن أعتقد أن الضرورة الطبيعية تعوق — على هذا النحو — الآثار المترتبة على أعظم العلاقات حنواً » .

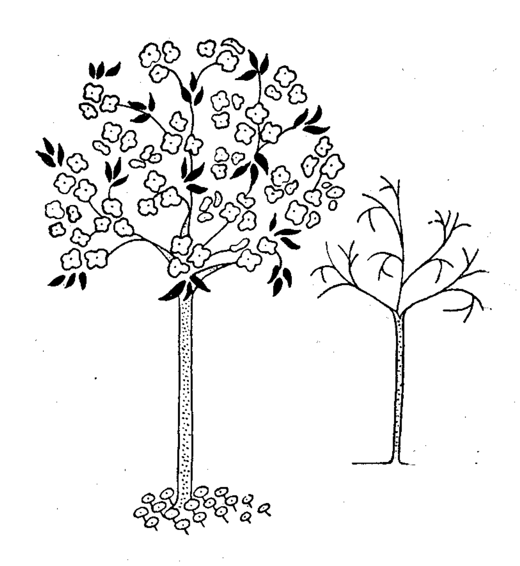
أجابت الأميرة : « ليس النزاع فى الأسرة ضرورياً إلى حد أنه لا يمكن تحاشيه أو الابتعاد عن خطره، غير أنه ليس من السهل تجنبه . وقلما نرى أسرة بأسرها فاضلة ، والأخيار والأشرار لا يتفقان اتفاقاً تاماً ، والأشرار بعضهم مع بعض أقل مع ذلك اتفاقاً . وقد يختلف الفضلاء فى الرأى أحياناً حينما تتنوع فضائلهم وتميل إلى التطرف . وعلى العموم هؤلاء الآباء الذين نالوا الاحترام الأسمى هم الذين يستحقونه لأن من يعيش عيشة راضية لا يمكن أن يكون موضعاً للازدراء .

« وهناك شرور كثيرة أخرى تعكر صفو الحياة ، فبعض الأسر عبيد للخدم الذين عهدوا إليهم بتدبير شئونهم ، والبعض فى قلق دائم بسبب أهواء الأقرباء الأثرياء الذين لا يستطيعون إرضاءهم ولا يجرءون على إغضابهم وبعض الأزواج متغطرسون ، وبعض الزوجات شـــاذات . وعلى الرغم من أنه يندر جداً أن تتسبب حكمة الإنسان أو فضيلته فى إسعاد الكثيرين يغلب أن ينتج عن حماقته أو رذيلته بؤس الجم الغفير ، ذلك بأن ارتكاب الشر أيسر لنا من فعل الخير » .

قال الأمير : « إذا كانت النتيجة العامة للزواج هكذا فانني أظن أنه من الخطر مستقبلاأن أربط مصلحتي بمصلحة آخر ، وإلا كنت شقيا بخطأ شريكي » .

قالت الأميرة : « لقد قابلت كثيراً ممن يعرضون عن الزواج لذلك السبب ، غير أنني لم أجد أبداً فى حرصهم مايحسدون عليه : لقد قضوا حياتهم فى أحلام من غير صداقة وبدون عطف ، وهم مدفوعون إلى أن ينقذوا أنفسهم — من اليوم الذى لاوزن له عندهم — بلهو أطفال ومتع تشوبها الرذيلة . إنهم يعملون عمل كائنات يسيطر عليها دائما الشعور بنقص معلوم لهم فيملأ عقولهم حقداً وضغينة ، وألسنتهم فحشا ولوما ، فهم مشاغبون فى مجالسهم الخاصة سيئو النية خارجها . وبما أنهم خارجون على الطبيعة البشرية فإنهم يجعلون همهم وسرورهم فى إزعاج المجتمع الذى يحرمهم امتيازاته . وليس العيش من غير أن تشعر بالعطف على الغير أو تثير عطف غيرك عليك ، والرخاء من غير أن يضيف إلى سعادة الآخرين ، والضيق من غير أن تذوق طعم الشفقة — ليس كل ذلك سوى حالة أشد حلكة من العزلة . إنها ليست انعزالا بل لفظ وطرد من المجتمع الإنسانى . فللزواج آلام كثيرة ، لكن العزوبة ليس فيها مسرات » .

قال راسلاس : « ما الذى يجب عمله إذن ؟ كلما طال بحثنا ضعفت قدرتنا على الحل . ومن المؤكد أن أقرب الناس إلى إسعاد نفسه هو ذلك الذى ليست له مآرب ولا اعتبارات أخرى » .



الفصل السابع والعشرون

بحث فى العظمة

توقفت المحادثة هنيهة ، وبعد أن فكر الأمير فى ملاحظات أخته أخبرها أنها قد كانت متحاملة فى استعراضها للحياة ، وأنها قد ظنت بؤساً ما ليس ببؤس . ثم قال : « إن قصتك تالقى مع ذلك سحابة قاتمة على الآمال فى المستقبل ، ولم تكن تكهنات إملاك سوى رسم مبدئى للشرور التى صورتها نكايه . لقد اقتنعت أخيراً أن راحة البال ليست وليدة العظمة ولا القوة ، وأن الحصول عليها لا يشترى بالثروة ولا يقهر بالغزو . ومن البين أنه كلما عمل الإنسان فى دائرة أوسع زاد تعرضه حتماً للمعارضة من الأعداء ، والفشل من فوات الفرصة . ومن كان عليه أن يرضى الكثيرين أو يحكمهم لزمه أن يستخدم الكثير من المساعدين ، وبعضهم شرير ، وبعضهم جاهل ، وسيضله البعض ، ويخونه البعض الآخر . إذا أرضى واحداً أغضب آخر . وسيعتقد هؤلاء الذين لم ينالوا حظوة لديه أنهم هم أنفسهم مغبونون . ولما كانت النعم لا يمكن منحها إلا لعدد قليل كان العدد الأعظم دائماً ساخطاً » .

قالت الأميرة : « إننى آمل أن أعيش دائماً لأحتقر هـــذا النوع من السخط غير المعقول ، وأن تكون لك القدرة على سحقه » .

فأجاب راسلاس : « ليس السخط دائماً خالياً من السبب فى أعدل إدارات الشئون العامة وأحرصها . ومهما تكن يقظة الإنسان فإنه لا يستطيع دائماً أن يكشف الجدارة التى قد تخفيها الفاقة ، ومهما تكن قدرته لا يستطيع دائماً أن يوفيها حقها . ومع ذلك كل من يرى من هو أقل منه مفضلا عليه نسب ذلك التفضيل إلى المحاباة أو الهوى والغرض. ومهما كان الإنسان طيب الأخلاق بفطرته أو سامياً بمركزه فما أضعف الأمل فى أنه يستطيع أن يتمسك بعدالة التوزيع إلى الأبد . إنه يفسح المجال أحياناً لميوله الخاصة ، وأحياناً لأهواء أخصائه . وسيأذن للبعض ممن لا يستطيعون أبداً خدمته أن يجلس منه مجلس الصفى ، ويكشف فى هؤلاء الذين يصطفيهم صفات هم فى الحقيقة منها مجردون ، ويحاول أن يسعد هؤلاء الذين كانوا مصدر سعادته . ألا تسود أحياناً — بناء على هذا — التزكيات التى اشتريت بالنقود أو بما هو أشد دماراً أعنى رشوة النفاق والذلة ؟

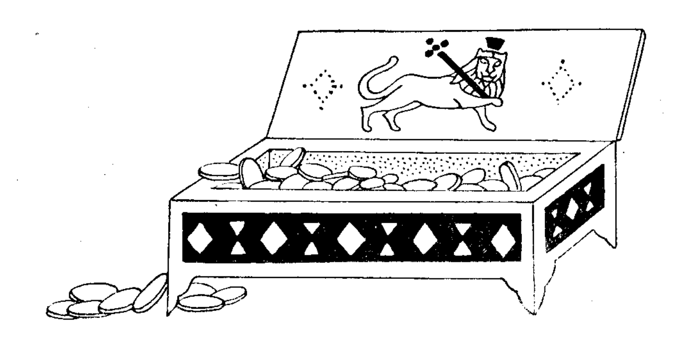
« ومن يعمل كثيراً لا بد أن يخطئ ، ويجب أن يتحمل نتائج ذلك الخطأ . وحتى لو استطاع أن يفعل دائماً صواباً،

وترك الحكم على سلوكه لعدد عديد من الناس لامه شرارهم وخيارهم ، واعترضوا طريقه بسوء قصد فى حالة الأشرار ، وحسن نية فى حالة الأخيار .

« فأسمى المناصب لا تستطيع لهذا أن يداعبها الأمل فى أن تكون موطناً للسعادة التى اعتقد اعتقاداً جازماً بأنها قد فرت من العروش والقصور إلى مواطن الخلوة المتواضعة للمعوزين ، والغموض الوديع للمطمورين . لأن من تكون مواهبه على قدر أعماله ، ومن يرى بعينيه محيط تأثيره كله ، ومن يختار بمعرفته هو من يكون موضعاً لثقته ، ومن لا يطمع أحد فى خدعه بالرغبة أو الرهبة — من يكون كذلك لا يستطيع شىء أن يعرقل قناعته ولا أن يعترض طريق آماله . وليس له من العمل سوى أن يحب ويحب ، وأن يكون فاضلا ، وأن يكون سعيداً » .

قالت نكايه : « لن يهيىء هذا العالم أبداً فرصة للحكم على السعادة الكاملة هل يمكن الحصول عليها بالطيبة التامة . غير أن المجمع عليه على الأقل هو أننا لا نجد دائماً سعادة ظاهرة موازية لفضيلة ظاهرة . كل الشرور الطبيعية ، وغالباً كل الشرور السياسية ، تصيب كلا من الشرير والخير ، فإنهما مختلطان فى بؤس مجاعة ، وليسا متميزين كثيراً فى التعرض لغضب عصابة . إنهما يغرقان معاً فى زوبعة ،

ويطردهما الغزاة جميعاً من بلادهما . وكل ما تستطيع الفضيلة أن تقدمه هو راحة الضمير ، وأمل ثابت فى حالة أسعد ، وقد يمكننا هذا من احتمال المصائب بالصبر . لكن لا يعزب عن بالك أن الصبر لا بد أن ينطوى على الألم » .



الفصل الثامن والعشرون

راسلاس ونكايه يواصلان حديثهما

قال راسلاس : « ياعزيزتى الأميرة إنك ترتكبين الأخطاء الشائعة فى الخطب المليئة بالمبالغة ، وذلك بضربك أمثلة – فى بحث عادى – للنكبات القومية ومناظر الأسى الشامل التى توجد فى الكتب لا فى العالم الواقعى ، والتى هى نادرة بقدر ماهى بشعة . فلنتحاش تخيل الشرور التى لا نحس بها ، ولنتجنب الإضرار بالحياة بسوء تمثيلها . إننى لا أستطيع أن أحتمل البلاغة المتذمرة التى تهدد كل مدينة بحصار كحصار بيت المقدس ، وتصور المجاعة كلما حلق الجراد ، وتعلق ظهور الوباء على كل ريح قوية تهب من الجنوب .

« ومن العبث كل أنواع النزاع حول الشرور التى لا مفر منها ، والتى تغمر الممالك فى آن واحد ، فإذا حدثت وجب احتمالها . ولكن من الواضح أن انفجارات الشدائد العالمية هذه نرهبها أشد مما نحس بها : فهناك الآلاف وعشرات الآلاف يزدهرون فى الشباب ويذبلون فى الشيخوخة من غير أن يعرفوا أى شيء آخر سوى الشرور المتعلقة بالأسرة . إنهم

يسهمون فى نفس المسرات والآلام سواء أكان ملوكهم رحماء أم قساة ، وسواء أكانت جحافل بلادهم تطارد أعداءهم أم تتقهقر أمامهم . وبينما القصور قلقة بالمنافسات الداخلية ، والسفراء يتفاوضون فى الممالك الأجنبية لا يزال الحداد يجد بسندانه ، والفلاح يتقدم بمحراثه ، وضرورات الحياة تطلب ويحصل عليها ، والأعمال المتعاقبة التى يقتضيها اختلاف الفصول تستمر لتعمل دوراتها المعتادة .

« فلنكف عن التفكير فيما لا يمكن وقوعه أبداً ، وفيما لو وقع فعلا لسخر من تقدير الإنسان وتأمله . إننا لن نحاول أن نغير حركات العناصر ، ولا أن نحدد ما قدر للممالك . إن عملنا هو أن نفكر فيما عسى أن تؤديه كائنات مثلنا ، كل يعمل لإسعاد نفسه بتنمية السعادة للآخرين داخل دائرته مهما ضاقت .

« والزواج من غير شك هو من إملاء الطبيعة وفروضها ، فالرجال والنساء خلقوا ليكون بعضهم لبعض قرينا ، ولهذا لا يستطيع أن يصرفنى شىء عن اعتبار الزواج إحدى وسائل السعادة » .

قالت الأميرة : « إننى لأخشى ألا يكون الزواج سوى شكل من الأشكال التى لا تحصى للبؤس الإنسانى ، وإننى أميل أن أعتقد — مع أشد علماء الأخلاق تمسكاً بمبادئه — بأن

الزواج — مع أنه مسموح به — ليس موضعاً للرضا والتحبيذ ، وأنه ليس هناك من يقحم نفسه فى حلف لا مخرج منه ولا حل لمشاكله إلا أن يحدث ذلك بتأثير وجدان مفرط فى الانهماك بالملاذ ، وذلك حينما أرى وأقدر الأشكال المتنوعة للشقاء الذى يصحب الحياة الزوجية ، والأسباب المفاجئة للنزاع الدائم ، وتباين الأمزجة والأخلاق ، وتضارب الآراء ، والتصادم الفظ بين الرغبتين المتناقضتين يستحث كلا منهما دوافع عنيفة ، والمنافسات العنيدة بين شخصين فاضلين متعارضين يؤيد كليهما الشعور بحسن النية » .

فأجاب راسلاس : « أظنك قد نسيت عرضك للعزوبة حتى الآن على أنها حالة أقل سعادة من الزواج . إن كلتا الحالتين سيئة ، ولكن لا يمكن أن تكونا متساويتين فى السوء . وحينما تظهر الآراء الخاطئة فإنه يحدث — بنـــاء على هذا — أن يهدم بعضها بعضاً ، وتترك العقل مستعداً لقبول الصواب والحق » .

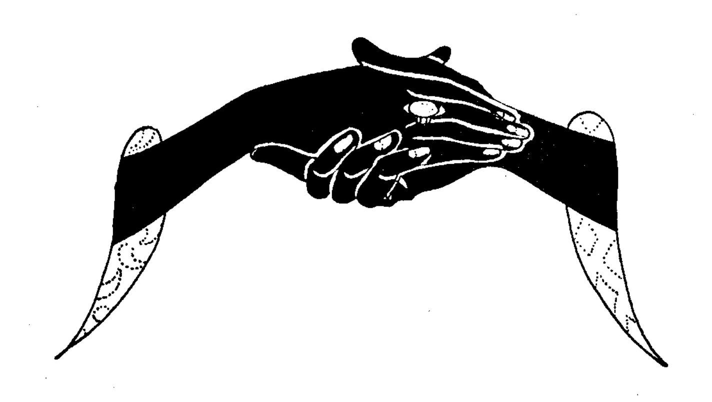
أجابت الأميرة : « إننى لم أتوقع أن أسمع بأن ما هو نتيجة للعجز والضعف ينسب للبطلان . وإنه لمن العسير على العقل — كما أنه متعذر للعين — أن يوازن بدقة بين أشيـــاء متسعة المدى متنوعة الأجزاء . وحينما نرى أو ندرك الكل فى وقت واحد نستطيع بسهولة أن نلاحظ المميزات ، ونصل

إلى قرار حاسم فى المفاضلة . أما عن نظامين لم يستعرضهما بَشَر بصورتهما الكاملة، وتعقيداتهما العديدة فلاغرو وإن كنت أتأثر بهذا تارة وبذاك تارة أخرى، حسبما يؤثر أحدهما فى ذاكرتى أو خيالى ، وذلك ما دمت أحكم على الكل بأجزائه . إننا نختلف عن أنفسنا — كما يختلف بعضنا عن بعض بالضبط — حينما نرى جانباً فقط من موضوع ما ، كما فى العلاقات المتعددة الأشكال فى السياسة والأخلاق ، لكن حينما ندرك الكل فى وقت واحد ، كما فى العمليات الحسابية، يتفق الجميع فى الحكم ، ولن يختلف أبداً أحد فى رأيه » .

قال الأمير : « فلنتجنب أن نضيف مرارة الشقاق إلى الشرور الأخرى فى الحياة ، وأن نحاول منافسة بعضنا البعض فى الدقائق الخفية للمناقشة . نحن مشغولان ببحث ، فإما أن يتمتع كلانا متعادلين بنجاحه ، وإما أن نقاسى نتائج فشله ، ولهذا كان من الأصلح أن يساعد أحدنا الآخر . ومما لا ريب فيه أنك شديدة التسرع فى استنتاجك من البؤس الذى يصاحب الحياة الزوجية أن الزواج لا ينبغى أن يقوم . أليس فى بؤس الحياة ما يبرهن كذلك على أن الحياة نفسها ليست نعمة من نعم السماء ؟ لا بد أن يكون العالم عامراً بالناس : بالزواج أو بدونه » .

ردت نكايه قائلة : « إن الطريقة التى يعمرها العالم بالناس

أمر لا يعنينى ، وليست فى حاجة إلى عنايتك . وإننى لا أرى خطراً من أن الجيل الحاضر لا يترك خلفاء له وراءه . ونحن لا نبحث الآن للعالم بل لأنفسنا » .



الفصل التاسع والعشرون

مناظرة الزواج تستمر

قال راسلاس : « إن خير الكل هو نفس الخير لأجزائه ، فإذا كان الزواج خيراً للناس عامة وجب أن يكون من غير تردد خـــيراً للأفراد وإلا لزم أن يكون الواجب الدائم الضرورى سبباً للشر ، وكان لا مفر من التضحية بالبعض لمصلحة الآخرين . ويظهر من تقديرك للحالتين أن متاعب العزوبة ضرورية ومؤكدة إلى حد كبير ، أما متاعب الحالة الزوجية فعرضية ومن الممكن تجنبها .

« إننى لا أستطيع سوى أن أطمع فى أن التعقل والميل للخير يجعلان الزواج سعيداً ، وأن الحماقة العامة فى البشر هى سر الشكوى الفاشية بينهم . وماذا يتوقع سوى خيبة الأمل والندم على اختيار تم فى عهد الشباب غير الناضج ، فى وقت اشتعال الشهوة من غير فطنة ، ولا بحث عن انسجام الآراء ، وتماثل الأخلاق ، واستقامة التفكير أو نقاءالسريرة ؟

« وهذه هى عملية الزواج المعتادة ، يلتقى الشاب والشابة مصادفة أو يحتال للقائهما ، فيتبادلان النظرات والمجاملات ، ثم يذهب كل منهما إلى البيت ويحلم بالآخر . ولما لم يكن لهما

سوى القليل مما يحول انتباههما أو ينوع فكرهما يجدان نفسيهما قلقتين إذا افترقا ، ويستنتجان لهـذا أنهما سيكونان سعيدين إذا اجتمعا ، فيتزوجان ، ثم يكتشفان ما لم يخفه من قبل سوى العمى الاختيارى ، فيضيقان بالحياة فى شجار وخصام ، ويرميان الطبيعة بالقسوة .

« ومن هذه الزيجات المبكرة يصدر أيضاً التنافس بين الآباء والأبناء ، فالابن تواق للتمتع بالعالم قبل أن يرغب الأب فى هجره . ومن العسير أن يتسع المكان لجيلين فى آن واحد . والبنت تبدأ فى الازدهار قبل أن تستطيع الأم الرضا بالذبول ، ولا تستطيع إحداهما سوى أن ترغب فى اختفاء الأخرى .

« ولا ريب أنه قد تتجنب هذه الشرور بالروية والأناة اللتين تنصح بهما الحكمة فى اختيار غير قابل للفسخ . وللحياة من متع الشباب ومرحها ما فيه الغناء عن مساعدة شريك . وكلما طال الزمن زادت التجارب ، وهيأ اتساع الأفق فرصاً أفضل للبحث والاختيار . وفى الزواج غير المبكر ميزة على الأقل محققة : وهى أنه يظهر فيه فرق السن بين الآباء والأبناء بصورة أوضح » .

قالت نكايه : « إن ما لم يستطع عقلنا أن يجمعه ، وما لم تلقنه خبرتنا بعد لا يمكن معرفته إلا من أفواه الآخرين .

لقد أنبئت أن الزيجات المتأخرة لا تمتاز بالسعادة ، وهذا أمر لا ينبغى إهماله لبلوغه من الأهمية غايتها ، وكثيراً ما عرضته على هؤلاء الذين لهم من دقة ملاحظتهم ومعرفتهم الجامعة ما جعل موافقتهم عليه جديرة بالاعتبار . ولقد جزم أغلبهم بأن من الخطر للرجل والمرأة أن يعلق أحدهما مصيره على الآخر فى وقت تحددت فيه الآراء ، وثبتت العادات ، وارتبط كل منهما برباط الصداقة مع الغير ، فى وقت اتخذت فيه حياة كل منهما منهجاً محدوداً، وتمتع العقل طويلا بالتأمل فى أفكاره.

« ومن النادر أن يوجه اثنان يجوبان العالم مصادفة إلى نفس الطريق ، وقلما يحدث أن يترك أحدهما الطريق الذى زينته له العادة . فإذا استقرت خفة الشباب المستهترة وانتظمت فسرعان ما تخلفها الكبرياء التى تخجل من التسليم ، والعناد الذى يطرب للمقاومة والنزاع . ومع أن التقدير المتبادل ينتج رغبة متبادلة فى إسعاد كل منهما الآخر غير أن الوقت نفسه — كما يغير المظاهر الخارجية بدون استثناء — يحدد كذلك اتجاه الوجدانات ، ويضفى على الأخلاق صلابة لا تقبل المرونة . وكلما طال تعودنا للشىء صعبت مخالفته . ومن يحاول أن يغير مجرى حياته يغلب جداً أن تذهب محاولته هباء . فكيف نعمل للآخرين ما يندر أن نستطيع عمله لأنفسنا ؟ » .

فقاطعها الأمير : « إنك لاريب تفترضين أن الباعث

الرئيسى على الاختيار قد نسى أو أهمل . إننى حينما أبحث عن زوج سـيكون أول همى أن أتأكد من استعدادها للسير حسب الحكمة والعقل » .

قالت نكايه : « وهكذا يخدع الفلاسفة . إن هناك ألفاً من أنواع الشقاق المعتادة لن يستطيع أن يحسمها العقل ، وهناك مشاكل يتحاشاها الفحص والاستقصاء ، وتجعـل من المنطق سخرية ، وهناك حالات تتطلب سرعة الإنجاز والإقلال من النقاش . تدبر حال الناس ، وانظر إلى أى حد من القلة بلغ هؤلاء الذين تفترض فيهم القـدرة على العمل فى أى ظرف حقير أو خطير وأسباب العمل ماثلة فى أذهانهم . فما أشقى الزوجين وما أتعسهما إذا قضى عليهما أن يرتبا حسب العقل والحكمة كل التفصيلات الدقيقـة ليوم من أيام الأسرة .

« وإن هؤلاء الذين يتزوجون فى سن متقدمة قد ينجون من مضايقات أبنائهم ، ولكن يقلل من هذه المزية أنهم قد يتركونهم جهلة وعجزة تحت رحمة وصى أو — إذا لم يحدث هذا — قد يخرجون من العالم قبل أن يروا أحب الناس إليهم حكماء أو عظماء .

« وإذا كان خوفهم من أبنائهم قد قل فإن أملهم فيهم قد قل أيضاً ، وفقدوا من غـبر مقابل متع الحب

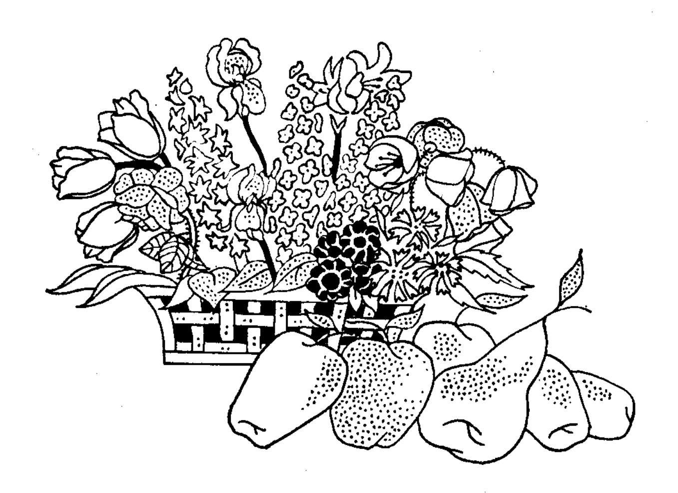
المبكر ، وفرصة الاتصال بأخلاق قابلة للتشكيل وعقول مستعدة لآثار جديدة ، وهذان الأمران قد يقضيان بالعشرة الطويلة على أوجه الخلاف بينهما ، كما أن الأجسام اللدنة تتلاءم — بدوام الاحتكاك — سطوح بعضها مع بعض .

« وأنا أعتقد أن هؤلاء الذين يتزوجون فى سن متقدمة يسرون أكثر بأبنائهم ، وهؤلاء الذين يتزوجون فى سن مبكرة يتمتعون أكثر بشركائهم » .

قال راسلاس : « إن اتحاد هذين الحبين قد يحقق كل الرغبات ، وقد يكون هناك وقت يوحد بينهما فيه الزواج ، وقت لا هو مبكر جداً بالنسبة لأب ، ولا هو متأخر جداً بالنسبة لزوج » .

فأجابت الأميرة : « إن كل ساعة تمر تؤيد انحيازى إلى الموقف الذى كثيراً ما عبر عنه إملاك : وهو أن الطبيعة تضع منحها على اليد اليمنى واليد اليسرى . وهذه الحالات — التى تقوى الأمل وتجذب الرغبة — مكونة بحيث إذا اقتربنا من واحدة ابتعدنا عن أخرى . فهناك نوعان متضاربان من الخير لا نستطيع أن نستولى عليهما معا ، لكن لو تغالينا فى التعقل لمررنا بينهما على مسافة طويلة لا تمكننا من الوصول لأحدهما . وكثيراً ما تكون هذه نهاية التفكير الطويل ، فإن من يحاول أن يفعل ما هو فوق مقدور

البشر لا يفعل شيئاً . فلا تخدع نفسك بملاذ متناقضة ، واختر من النعم الماثلة أمامك ، وكن قانعاً . فما من إنسان يستطيع أن يذوق فاكهة الخريف بينما يمتع أنفه بأزهار الربيع ، وما من أحد يستطيع أن يملأ كوبه من منبع النيل ومصبه فى آن واحد » .



الفصل الثلاثون

إملاك يدخل ويغير الحديث

وهنا دخل إملاك وقاطعهما ، وقال راسلاس :
« إملاك ! لقد كنت أتلقى من الأميرة التاريخ المظلم للحياة الخاصة ، وأنا شبه يائس من الاستمرار فى البحث » .

قال إملاك : « يخيل إلى أنه أثنـــاء اختياركما طريق الحياة تهملان الحياة نفسها . إنكما تقصران تنقلكما على مدينة واحدة وهى مهما اتسعت أو تنوعت لا تستطيع أن تقدم الآن سوى طرائف قليلة ، وتنسيان أنكما فى مملكة شهيرة بين أقدم الأسر الملكية ببأس سكانها وحكمتهم ، مملكة أشرقت فيها أول ما أشرقت العلوم التى أنارت العالم ، ولا نستطيع أن نتتبع قبلها فنون المجتمع المتحضر وفنون الحياة فى الأسرة .

« لقد خلف قدامى المصريين آثاراً للعمل المضنى والسلطة الجبارة يقر الجميع بأن عظمة أوربا كلها تتضاءل أمامها . وإن خرائب فنونهم فى العمارة مدارس البنائين المحدثين . وقد نستطيع أن نخمن بوجه التقريب من البقايا التى أبقى عليها الدهر عظمة ما دمره من عجائبهم » .

قال راسلاس : « إن استطلاعى لا يعنى عناية كبيرة بأن أعاين أكوام الأحجار أو أفحص تلال الأتربة . إن عملى مع الإنسان نفسه . لقـــد جئت إلى هنا لا لأ قيس أجزاء المعابد ، ولا لأتتبع مجارى العيون التى سدت على مر الزمن ، بل لألقى نظرة على المناظر المتنوعة للعـــالم الحاضر » .

وقالت الأميرة : « إن الأشياء التى أمامنا الآن تتطلب الانتباه وتستحقه ، فماذا نفعل بأبطال العصور القديمة وآثارها ؟ وماذا نفعل بأزمنة لا يمكن أبدا أن تعود ، وبأبطال كان أسلوب حياتهم مختلفاً عن كل ما تقتضيه أو تسمح به الحالة الراهنة للعالم الإنسانى ؟ » .

فرد الشاعر : « لكى نعرف أى شيء يجب أن نعرف آثاره ، ولكى نرى الناس يجب أن نرى أعمالهم لعلنا نتعلم منهاما أملاه العقل ، أو ما أغرى به الوجدان ، ونكشف أقوى البواعث على العمل . والحكم الصحيح على الحاضر يلزمنا بمقابلته بالماضى لأن الأحكام كلها نسبية . وأما عن المستقبل فلا يمكن أن يعرف أى شيء . والحقيقة أنه ليس هناك عقل يشغل كثيراً بالحاضر : فالذكريات والآمال تملأ تقريباً كل لحظاتنا . ووجداناتنا

هى الفرح والحزن والحب والكره والأمل والخوف . أما الفرح والحزن فميدانهما الماضى ، وميدان الأمل والخوف المستقبل ، وحتى الحب والكره لا يتجاهلان الماضى لأن السبب يجب أن يوجد قبل المسبب .

« فالحالة الراهنة للأشياء هى نتيجـــة لحالة سابقة . وإنه لمن الطبيعى أن نبحث عن مصادر الخير الذى نتمتع به أو الشر الذى نقاسيه . فإذا عملنا من أجل أنفسنا فقط فليس من الحكمة أن نهمل دراسة التاريخ ، وليس ذلك من العـــدل إذا عهد إلينا أن نعنى بالآخرين . والجهل حينما يكون بإرادة الإنسان جريمة . وقد يتهم بالشر من رفض أن يتعلم كيف يتحاشاه .

« وليس هناك جزء من التاريخ أعم نفعاً من ذلك الذى يعرض لتقدم العقل البشرى ، والتحسن التدريجى فى التفكير ، والنمو المطرد فى العلوم ، وتعاقب العلم والجهل ، وهما نور الكائنات المفكرة وظلامها ، وانقراض الفنون وإحيائها ، وثورات الحياة العقلية . وإذا كانت أخبار المواقع والفتوح من أخص شئون الأمراء فإن الفنون النافعة أو الجميلة لا ينبغى إغفالها ، لأن هؤلاء الذين لهم ممالك عليهم أن يحكموها لهم كذلك عقول يجب أن يغذوها وينموها .

« والمثال دائماً أشد تأثيراً من المبدأ : فالجندى يتكون فى الحرب ، والنقّاش يجب أن ينسخ صوراً لغيره من النقاشين . وتمتاز الحياة النظرية بهذه الحقيقة ، وهى أن الأعمال العظيمة تندر رؤيتها . أما أعمال الفن فهى دائماً فى متناول اليد بالنسبة لمن يريد أن يعرف ماذا استطاع الفن أن ينجز .

« وحينما تصدم العين أو الخيال بعمل غير عادى فالانتقال التالى للعقل الموجب هو إلى الوسائل التى بها قد أنجز .

« وهنا تبدأ فائدة هذا التأمل والنظر ، فنوسع مداركنا بأفكار جديدة ، وربما نسترد بعض الفنون التى فقدها الإنسان ، أو نتعلم ما عرف فى بلادنا معرفة أقل إحكاماً ، ونقابل على الأقل مالنا بما للأزمنة القديمة ، فإما أن نبتهج لتقدمنا ، وإما أن نقف على عيوبنا ، وهذه هى الخطوة الأولى نحو المصلحة والخير » .

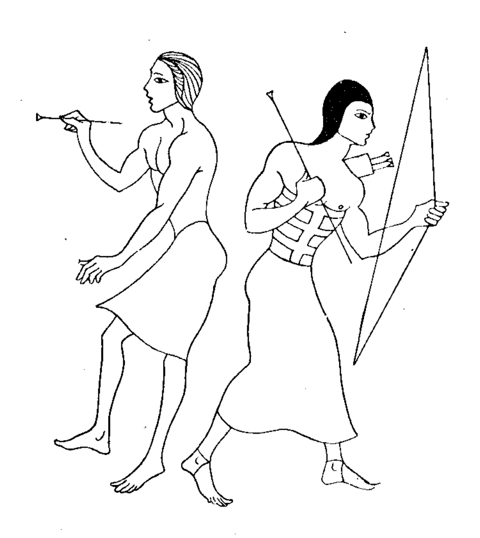
قال راسلاس : « أنا مستعد لرؤية كل ما هو جدير ببحثى واطلاعى » .

وقالت الأميرة : « وأنا سيبهجنى أن أتعلم شيئاً من أساليب القدماء » .

وقال إملاك : « إن أجل الآثار التى تبعث على المباهاة والفخر بالعظمة المصرية ، وأضخم عمل من أعمال الصناعة

اليدوية هو الأهرام . لقد أقيمت عمائر فى عصر ما قبل التاريخ تقدم لنـــا عنها أقدم الروايات أحاديث غير مقطوع بصحتها ، وأعظمها لا يزال قائماً لم ينل منه الزمن إلا قليلا جداً » .

قالت نكايه : « فلنزرها غداً . لقد سمعت كثيراً عن الأهرام ، ولن يهدأ لى بال حتى أراها من الداخل والخارج بعينى رأسى » .



الفصل الواحد والثلاثون

يزورون الأهرام

ولما كان هذا قرارهم توجهوا فى اليوم التالى ، ووضعوا الخيام فوق الجمال لأنهم قرروا أن يبقوا بين الأهرام حتى يتم إشباع استطلاعهم . فرحلوا متأنين فى رحيلهم ، والتفتوا إلى كل شيء جديد بالملاحظة ، ووقفوا من حين لآخر متحدثين إلى السكان ، ولاحظوا المظاهر المتنوعة للمدن الخربة والمعمورة ، وللطبيعة الجرداء والمزروعة .

وحينما وصلوا إلى الهرم الأكبر دهشوا لعظم اتساع القاعدة وشدة ارتفاع القمة . وأوضح إملاك الأسس التى اختير عليها الشكل الهرمى لعمارة قصد بها أن تطاول الزمن بقاء ، وأراهم أن النقص التدريجى فى حجم الهرم كلما تسلقنا إلى القمة قد أكسبه رسوخاً لم يقو عليه جميع ما اعتادت عناصر الطبيعة أن تنزل من ضربات قاصمة متتابعة شاملة . ويصعب أن تستطيع الزلازل نفسها تدميره رغم أنها مظهر لعنف الطبيعة تشق مقاومته . وإن الزلزلة التى تستطيع أن تعصف بالهرم لتستطيع أن تهدد القارة بالفناء والانحلال .

فقاسوا أبعاد الأهرام جميعها ، وضربوا خيامهم بأسفل

سفحها . وفى اليوم التالى استعدوا لدخول الحجر الداخلية . وبعد أن استأجروا المرشدين المعتادين تسلقوا حتى وصلوا إلى الممر الأول . وحينما نظرت وصيفة الأميرة إلى الهوة تراجعت مرتعدة فقالت الأميرة : « بكواه مم تخافين ؟ ». فأجابت السيدة : « من المدخل الضيق والظلمة المرعبة . إننى لا أجرؤ على أن أدخل مكاناً مسكوناً لا محالة بأرواح قلقة ، وإن الملاك الأصليين لهذه الأقبية المفزعة سيمثُلون أمامنا ، وربما أغلقوا علينا الأبواب إلى الأبد » . تكلمت ثم طوقت جيد سيدتها بذراعيها .

قال الأمير : « إن كان كل خوفك من الأشباح فأنا أعدك بأنك ستكونين آمنة . فليس هناك خطر من الموتى . ومن دفن مرة لا يمكن أن يرى مرة أخرى » .

فقال إمــلاك : « أما أن الموتى لا يرون ثانية فذلك مالا أستطيع الجزم به أمام الأدلة المجمع عليها فى جميع العصور وكل الأمم : إذ ليس هناك شعب من البدائيين أو المتحضرين لم يعتقد فى أشباح الموتى ، وتتناقل أخبارها بين أفراده . وهذا الرأى الذى ينتشر انتشار الطبيعة الإنسانية لا يمكن أن يكسب عموميته إلا لأنه حق . أما هؤلاء الذين لم يتصلوا بالعالم فلا ينتظر أن يسلموا بقصة التجربة وحدها كفيلة بتأييدها . وأما أن بعض المكابرين يشكون فى أمرها

فلا يستطيع أن يضعف من البرهان الإجماعى إلا قليلا .
وبعض هؤلاء ينكرونها بألسنتهم ويقرونها بقلوبهم .

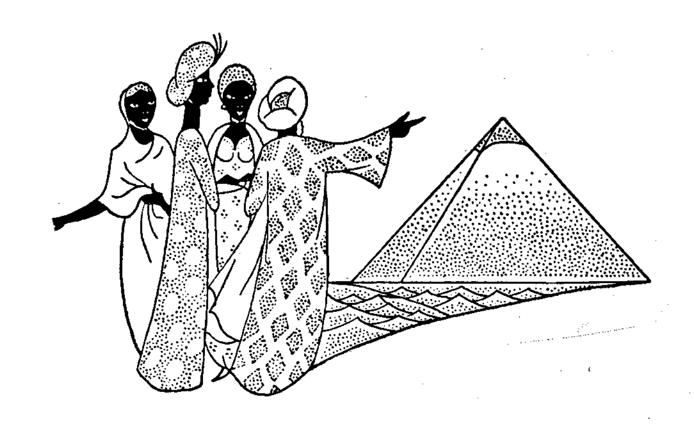
« وأنا لا أقصد مع ذلك أن أضيف مخاوف أخرى إلى ما قد استولى على بكواه فعلا من مخاوف . ولا يمكن أن يكون هناك سبب لسكنى هذه الأشباح الأهرام أكثر من الأماكن الأخرى ، أو لأن لهم القدرة أو الرغبة فى إيذاء الأبرياء الأطهار . ولم يكن دخولنا افتئاتاً على امتيازاتهم ، ولا اعتداء على حقوقهم . ولم يكن فى استطاعتنا أن نسلبهم شيئاً ، فكيف نستطيع أن نغضبهم ؟ » .

قالت الأميرة : « يا عزيزتى بكواه سأتقدمك دائماً ، وسيتبعك إملاك ، ولا تنسى أنك رفيقة أميرة الحبشة » .

فأجابت السيدة : « إن كان يرضى الأميرة أن تموت خادمتها فليكن أمرها موتاً أقل رعباً من السجن فى هــذا الكهف المخيف . إنك تعلمين أنى لا أجرؤ على عصيانك ، وأننى لا بد أن أذهب إذا أمرتنى ، ولكن إن دخلت مرة فلن أعود ثانية » .

رأت الأميرة أن خوفها قد بلغ حداً لا يجدى معه النصح أو التوبيخ . وبعد أن عانقتها أمرتها أن تبقى فى الخيمة حتى عودتهم . ولم تقنع بهذا مع ذلك بكواه بل توسلت إلى الأميرة ألا تستمر فى تحقيق غرض مرعب كهذا الذى

تقصد إليه من دخول زوايا الهرم وخفاياه . ثم قالت نكاية :
« مع أننى لا أستطيع أن أعلّم الشجاعة لا ينبغى أن أتعلم
الجبن ، أو أن أترك فى النهاية ما جئت إلى هنا خاصة لعمله
غير معمول » .



الفصل الثانى والثلاثون

يدخلون الهرم

نزلت بكواه إلى الخيام ، ودخل الباقون الهرم ، ومروا بطريق الأروقة ، وعاينوا أقبية الرخام ، وفحصوا التابوت الذى كان مفروضاً أن تودع فيه مومياء مؤسس الهرم ، ثم جلسوا فى إحدى الغرف الرحبة ليستريحوا قليلا قبل أن يحاولوا العودة .

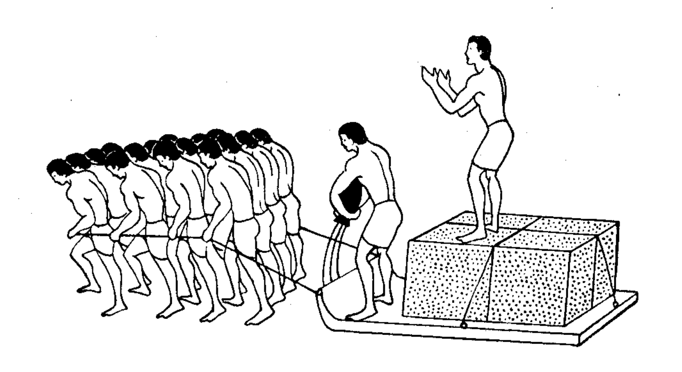
قال إملاك : « لقد أشبعنا الآن عقولنا بفحص دقيق لأجل عمل من أعمال الإنسان إذا استثنينا سور الصين العظيم .

« أما من ناحية السور فإنه من اليسير جداً أن نحدد الباعث على إقامته ، فقد حمى أمة ثرية رعديدة من غزو البرابرة الذين يسر لهم تأخرهم فى الفنون أن يسدوا حاجاتهم بالسلب لا بالعمل ، والذين انقضوا على أصحاب المتاجر الآمنة انقضاض النسر على الطيور المستأنسة . فقد جعلت سرعتهم الخاطفة وتوحشهم السور ضرورياً ، كما جعله جهلهم فعالا

« وأما عن الأهرام فلم يعط سبب كاف للنفقات الفادحة والجهد المضنى فى العمل . وإن ضيق الغرف ليبرهن على أنها لا تصلح ملجأ من الأعداء . وقد كان من المحتمل أن تودع الكنوز مع نفس الحماية والأمان بنفقات أقل كثيراً . ويخيل إلى أنها لم تؤسس إلا استجابة لنهم الخيال الذى يفترس دائماً الحياة ، والذى يجب أن تسكن ثورته دائماً بنوع من أنواع العمل . فهؤلاء الذين اجتمع لهم كل ما يمكن أن يتمتعوا به لابد أن يضاعفوا رغباتهم : ومن بنى للحاجة حتى أشبع حاجته لابد أن يبدأ البنـــاء لمجرد التظاهر ، ويمد خطته إلى أقصى ما يستطيع حتى لا يكون هناك فى المستقبل القريب مجال لظهور رغبة أخرى .

« وإنى لأعتبر هذا البناء الجبـــار تذكاراً لعجز المتع الإنسانية مهما كثرت عن أن تسد حاجات الإنسان . فالملك الذى لا حد لسلطانه ، والذى تزيد كنوزه على كل الحاجات الحقيقية والمتخيلة يضطر إلى أن يرفه عن سلطته المشبعة أكثر من الحاجة ، ومتعه المسئمة المملة على كثرتها بإقامة هرم . ولابد أن يروح عن نفسه ليزيل سأم الحياة المتدهورة المضمحلة برؤيته الآلاف تكدح من غير نهاية والأحجار يصف بعضها فوق بعض صفـــاً لا هدف له .

فيامن لا تقنع بحال معتدلة ، وتتخيل السعادة فى العظمة الملكية ، وتحلم بأن السلطة أو الثروة تستطيع أن تشبع دائماً نهم النفس إلى الطرافة والتجديد ، تأمل الأهرام واعترف بضلالك » .



الفصل الثالث والثلاثون

الاميرة يصادفها سوء حظ

نهضوا وعادوا مجتازين الهوة التى دخلوا منها ، وأعدت الأميرة لوصيفتها قصة طويلة عن سراديب ضيقة وحجر غنية بالأثاث ، وعن الآثار المختلفة التى تركها تنوع الطريق فى نفسها ، لكن حينما وصلوا إلى حاشيتهم وجدوا الجميع صامتين وحزانى . وكان يبدو على وجوه الرجال الشعور بالخزى والخوف ، كما كانت النساء يبكين فى الخيام .

ولم يحاولوا أن يتكهنوا بما حدث ، بل سألوا فى الحال فأجابت إحدى الجوارى : « ما كدتم تدخلون الهرم حتى انقض علينا جماعة من الأعراب . وكنا من القلة بحيث لانستطيع المقاومة ، ومن البطء بحيث لا نستطيع الهرب . وما كادوا يفتشون الخيام ، ويحملوننا على جمالنا ، ويدفعوننا أمامهم حتى ألجأهم اقتراب بعض الفرسان من الأتراك إلى الفرار ، غير أنهم قبضوا على السيدة بكواه وجاريتيها ، وحملوهن معهم ، ولا يزال الأتراك — بفضل توسلاتنا واستحثاثنا — يطاردونهم ، غير أننى أخشى أنهم لن يستطيعوا التغلب عليهم » .

أنهكت الدهشة والحزن الأميرة . وكانت الشرارة الأولى فى غضب راسلاس أن أمر خدمه أن يتبعوه ، وتأهب ليقتفى

أثر اللصوص والسيف فى يده . فقال إملاك : « سـيدى ما قيمـة العنف ، وما فائدة البسالة ؟ فالأعراب يمتطون جياداً مدربة على الكر والفر ، وليس لنا من أنواع الحيوان سوى حملة الأثقال . وإذا تركنا مستقرنا الحاضر ربما فقدنا الأميرة ولم نستطع أن نأمل فى إعادة بكواه » .

عاد الأتراك — ولم تمض فترة طويلة — بعد أن يئسوا من اللحاق بالعدو ، فانفجرت الأميرة ثانية بالرثاءوالبكاء ، وكان من العسير على راسلاس أن يمنع نفسه من رمى الأتراك بالجبن . غير أن إملاك كان يرى أن فرار الأعراب لم يزدهم سوء طالع ، إذ ربما فضل الأعراب قتل أسراهم على التخلى عنهن .



الفصل الرابع والثلاثون

يعودون إلى القاهرة من غير بكواه

لم يكن هنـــاك أمل من إطالة الإقامة ، فعادوا إلى القاهرة نادمين على استطلاعهم ، ولائمين الحكومة لإهمالها ، وناعين تسرعهم الذى كان من نتيجته أن أهملوا الحصول على حرس ، ومتخيلين وسائل كثيرة كان من المحتمل أن يتجنب بها فقـــد بكواه ، ومقررين عمل شىء لإعادتها ، ولو أنه لم يعثر أحد منهم على ما ينبغى عمله .

وأوت نكايه إلى مخدعها حيث حاولت جارياتها أن يواسينها بإخبارهن إياها أنه كان لهن جميعاً متاعب ، وأن السيدة بكواه كانت قد تمتعت بالكثير من السعادة فى الحياة زمنـــاً طويلا ، وقد يكون من المعقول أنها كانت تتوقع تغييراً للحظ ، وأن أملهن أن يصيبها خير أينما حلت ، وأن سيدتهن ستجد صديقة أخرى تحل محلها .

فلم تجبهن الأميرة ، وواصلن أسلوبهن فى المواساة غير حزنات بقلوبهن على فقد الوصيفة .

وفى اليوم التالى قدم الأمير للباشا مذكرة بما قاساه من

اعتداء الأعراب ، وملتمساً لرفع الظلم . فهدد الباشا بعقاب اللصوص ، وإن كان لم يحاول القبض عليهم ، كما أنه لم يُستطع فى الحقيقة أن تقدم إيضاحات ولا أوصاف قد يوجه الباشا على أساسها مطاردتهم .

وسرعان ما ظهر أن السلطات لا تعمل شيئاً . ولما كان الحكام قد ألفوا أن يسمعوا بجرائم فوق ما يستطيعون العقاب عليه ، وبآثام أكثر مما يستطيعون الاقتصاص من أصحابها أراحوا أنفسهم مهملين جميع الحالات من غير تمييز ، ونسوا الطلب بمجرد أن يغيب الطالب عن أنظارهم .

وحاول إملاك أن يقف على بعض المعلومات عن طريق مندوبين خاصين . فقد وجد كثيراً ممن تظاهروا بالمعرفة الدقيقة لكل مواطن الأعراب ، والاتصال المنتظم برؤسائهم ، وكانوا على استعداد للتعهد بإعادة بكواه . وبعض هؤلاء زودوا بالمال لرحيلهم ، غير أنهم لم يعودوا أبدا . والبعض منح بسخاء على أخبار تبين بعد أيام قليلة أنها مختلقة . ولكن الأميرة لم تسمح بترك أية وسيلة — مهما كانت بعيدة الاحتمال — من غير أن تجربها ، لأنها كلما كانت تعمل شيئاً كانت تبعث الحياة فى أملها . فإذا أخفقت وسيلة اقترحت أخرى . وإذا عاد رسول غير موفق فى رسالته أرسل آخر إلى مكان مختلف .

وكان قد انقضى حينئذ شهران لم يسمع فيهما شيء عن بكواه ، فأخذت الآمال التى حاول كل منهم أن يعلقها على الآخرين تتباطأ وتضعف . ولما رأت الأميرة أنه قد أعيتهم المحاولة والحيلة استغرقت فى حزن لا أمل منه ولا سلوى فيه ، وأنبت نفسها ألف مرة على إذعانها السهل بسماحها لوصيفتها أن تمكث بعيدة عنها ، وقالت : « لولم يتغلب حبى لها على سلطتى عليها ما جروئت بكواه على التكلم عن مخاوفها . كان ينبغى أن تهابنى أكثر مما تخاف الأشباح . ورب نظرة عابسة كانت تغلبها على أمرها . ورب أمر حازم كان يحملها على الطاعة فلماذا استولى على تدليلى الأحمق ؟ لماذا لم أتكلم وأرفض أن استمع ؟ » .

قال إملاك : « أيتها الأميرة العظيمة لا تؤنبى نفسك على فضيلة فيك ، أو لا تعتبرى ذلك الذى نتج عنه الشر عرضاً أمراً يلام عليـــه . إن عطفك على بكواه لفزعها كان كريماً وشفيقاً . وحينما نعمل حسبما يقتضيه واجبنا نسلم أمر النتيجة إلى من تتحكم فى أعمالنا قوانينه ، ومن لا يجيز لأحد أن يعاقب فى النهاية على الطاعة ، وحينما نخرج على القواعد التى وضعـت لنا لخير طبيعى أو خلقى ننحرف عن اتجـــاه الحكمة العليا ، ونتحمل نحن أنفسنا

العواقب . وإن الإنسان لا يستطيع إلى الآن أن يعرف العلاقة بين الأسباب والنتائج : فقد يجرؤ على ارتكاب الخطأ ليصل من وراء ذلك إلى الصواب . وحينما نواصل السعى لهدفنا بوسائل مشروعة نستطيع بعد ذلك أن نخفف دائماً وقع فشلنا بالأمل فى عوض مستقبل . ولكن حينما نستوحى سياستنا الخاصة فقط ، ونحاول أن نجد طريقاً أقرب إلى الخير بتجاوز الحدود المقررة بين الخطأ والصواب لا نستطيع أن نكون سعداء حتى مع التوفيق فى سعينا ، لأننا لن نستطيع أن نفلت من الشعور بخطئنا . أما إن خاب مسعانا فلا شفاء من مرارة الخيبة . ما أقسى قلق الحزين الذى يجمع فى آن واحد بين آلام الإثم وضيق المصيبة التى جرها عليه إثمه !

« تصورى أيتها الأميرة ماذا كانت تكون حالك لو أن السيدة بكواه توسلت إليك أن تصحبك ، وأجبرتها على البقاء فى الخيام ، ثم اختطفت . أو كيف كنت تتحملين الهم والفكر لو أنك أجبرتها على الدخول فى الهرم ، ثم ماتت أمامك من آلام الرعب والفزع ؟ » .

قالت نكايه : « لو حدثت إحداهما ما استطعت أن احتمل الحياة حتى الآن ، ولعذبت إلى حد الجنون

بتذكرى مثل هـــذه القسوة ، أو لذبلت مقتاً وكراهية لنفسى » .

فقال إملاك : « هذه على الأقل هى الجائزة الراهنة للسلوك الفاضل ، وهى أنه ليست هناك عاقبة سيئة تستطيع أن تحملنا على الندم » .



الفصل الخامس والثلاثون

الأميرة يضنيها فقدها لبكواه

وبعد أن رجعت نكايه إلى نفسها وجدت أنه ليس هناك شر لا يمكن احتماله سوى ذلك الذى يصحبه الشعور بالخطيئة . وتحررت منذ ذلك الحين من عنف الحزن العاصف ، واستغرقت فى هم صامت وسكون يغمره غم وكدرة ، وجلست من الصباح إلى المساء تتذكر كل ما عملته أو قالته بكواه وصيفتها ، وصانت كل صغيرة كان لها بالمصادفة قيمة فى نظر بكواه لعلها تثير فى نفسها ذكرى حادثة بسيطة أو حديثاً غير ذى بال . وكانت تختزن فى ذاكرتها أفكار من لا تتوقع فى ذلك الوقت أن تراها ثانية على أنها قوانين وقواعد للحياة . ولم تهدف من تأملها إلى أية غاية سوى أن تتكهن فى كل مناسبة بما عساه أن يكون رأى بكواه ونصيحتها .

ولم تعرف وصيفاتها شيئاً عن منزلتها الحقيقية ، لذلك لم تستطع أن تكلمهن إلا بحذر وحيطة . وبدأت تتخلى عن استطلاعها لأنه لم تكن لها عناية كبيرة بجمع أفكار لا تجد من المناسب التعبير عنها . وحاول راسلاس أولا أن يغريها ، وأن يسليها بعد ذلك . فاستأجر عازفين تظاهرت بالاستماع إليهم

وإن كانت لم تسمعهم . وحصل على أساتذة من الفنانين ليعلموها شتى الفنون ، فكانت محاضراتهم لابد أن تعاد فى الزيارات التالية . وفقدت تذوقها للمتع ، وطموحها للسبق والتفوق ، ومع أن ذهنها كان يجول جولات قصيرة بعيدة عن ميدان آلامها كان يعود دائماً إلى تخيل صورة صديقتها .

وكان إملاك يؤمر كل صباح أن يهتم بتجديد بحثه ، ويسأل كل مساء عن بكواه هل سمع شيئاً عنها بعد حتى قلت رغبته فى المثول بين يدى الأميرة ، وذلك بعد أن عجز عن إجابتها إلى ما طلبت . فلاحظت تأخره وأمرته بالحضور ، وقالت : « لا ينبغى أن تخلط بين الجزع وعدم الرضا بالحالة الراهنة ، أو أن تظن أننى أتهمك بالإهمال لأننى أتذمر من عدم توفيقك . إننى لا أعجب كثيراً لغيابك ، وأعلم أن صحبة الشقى لا تكون أبداً سارة ، وأن الجميع يتجنبون بالفطرة عدوى البؤس والشقاء . فالاستماع إلى الشكاوى مضن لكل من الشقى والسعيد . فمن ذا الذى يحجب بحزن عارض ومضات البهجة القصيرة التى تأذن لنا بها الحياة ؟ أو من ذا الذى يكافح شرور نفسه ويضيف إليها فى آن واحد ألوان البؤس التى يشقى بها آخر ؟

« لقد دنا الوقت التى لم يعد أحد ينزعج فيه بتأوهات نكايه . ولقد انتهى الآن بحثى عن السعـــادة . وقررت أن

أعتزل العالم بكل ما فيه من مداهنات وخدع ، وسأحجب نفسي في منعزل من غير أن أعنى بشيء سوى بتأليف أفكارى ، وتنظيم ساعاتى بأعمال بريئة متعاقبة مستمرة إلى أن أدخل — بعقل مجرد من الرغبات المادية — حالة يسرع إليها الجميع ، وآمل أن أتمتع فيها ثانية بصداقة بكواه » .

قال إملاك : « لا تعقدى تفكيرك بتصميمات لا يمكن الرجوع فيها ، ولا تزيدى عبء الحياة ثقلا بتجميعك ألوان البؤس بإرادتك ، فإن متاعب العزلة ستستمر أو تزيد حينما ينسى فقد بكواه . وإن حرمانك من متعة ليس سبباً وجيهاً لرفضك سائر المتع » .

قالت الأميرة : « ليس لى منذ أخذت منى بكواه متعة أرفضها أو أتمسك بها ، ومن ليس لها أحد تحبه أو تثق فيه ليس لها إلا قليل من الأمل ، فإنه يعوزها أول شرط أساسى للسعادة . وقد يصح لنا أن نقول إن ما تستطيع هذه الحياة أن تقدمه من قناعة لابد أن ينشأ من الجمع بين الثروة والمعرفة والخير . والثروة لا شيء إلا إذا منحت . والمعرفة لا قيمة لها إلا إذا تنوقلت ، ولهذا يجب منحها للغير ، فلمن أستطيع أن أمنحهما الآن ابتغاء سعادتى ومرضاتى ؟ وأما الخير فإنه يقدم لنا السلوى الوحيدة التى لا يحتاج التمتع بها إلى شريك ، إذ من الممكن أن يتحقق الخير فى المنعزل » .

فأجاب إملاك : « إننى لن أجادل الآن فى مدى ماتسمح به العزلة من الخير ، وإلى أى حد تهيئ ظروفها تنميته . تذكرى اعتراف الزاهد التقى ، وستحنين للعودة إلى العالم حينما تغادر صورة رفيقتك ذهنك » .

قالت نكايه : « لن يأتى ذلك الوقت . إننى سأفتقد دائما فى بكواه العزيزة صراحتها الكريمة ، وخضوعها المصحوب بالحياء ، والثقة بها فى المحافظة على السر ، وذلك كلما طالت بى الحياة لأرى فيها الرذيلة والحماقة » .

قال إملاك : « إن حال العقل المنكوب بمصيبة مفاجئة كحال السكان الخرافيين للأرض فى بدء خلقها حينما خيم عليهم أول ليل ظنوا أن النهار لن يعود أبداً . وحينما تتجمع سحب الهم فوقنا لا نرى شيئاً خلفها ، كما لا نستطيع أن نتخيل كيف تبدد . ومع ذلك تلا الليل نهار جديد ، والهم لا يستمر طويلا من غير أن يعقبه فجر من الراحة والسلوى . غير أن هؤلاء الذين يمنعون أنفسهم من قبول السلوى يفعلون كما كان يفعل البدائيون لو أنهم فقأوا أعينهم حينما خيم الظلام . إن عقولنا كأجسامنا دائما فى مد وجزر : تفقد كل ساعة شيئا وتقتنى شيئاً . وليس من مصلحة أحدهما أن يفقد كثيراً ، لكن ستجد الطبيعة وسائل الإصلاح ما بقيت القوى الحيوية سليمة . والبعد يؤثر على العقل كما يؤثر على

العين . وبينما نطفو على نهر الأيام يتضاءل دائما كل ماتتركه خلفنا ، ويزداد حجما كل ما نقترب منه . فلا تبيحى للحياة الركود ، وإلا توحلت لحاجتها إلى الحركة . وسلمى نفسك ثانية لتيارات العالم ، فبكواه ستختفى تدريجا ، وستقابلين فى طريقك وصيفة أخرى ، أو تتعلمين كيف تشغلين نفسك بأحاديث الناس جميعا » .

وقال الأمير : « لا تيأسى على الأقل قبل أن نجرب جميـــع الوسائل ، فالبحث عن السيدة البائسة لا يزال مستمراً ، وسيجرى مع ذلك بعناية أعظم بشرط أن تعدى بأن تنتظرى النتيجة فى مدى سنة من غير أن تتخذى قراراً حاسما » .

فظنت نكايه أن هذا طلب معقول ، فوعدت أخاها ، وكان إملاك قد نصحه أن يطلبه . ولم يكن لإملاك بالطبع أمل كبير فى العثور على بكواه ، لكنه ظن أنه إذا استطاع أن يطمئن مدة سنة فستكون الأميرة حينئذ بمنجاة من خطر الذهاب إلى الدير .



الفصل السادس والثلاثون

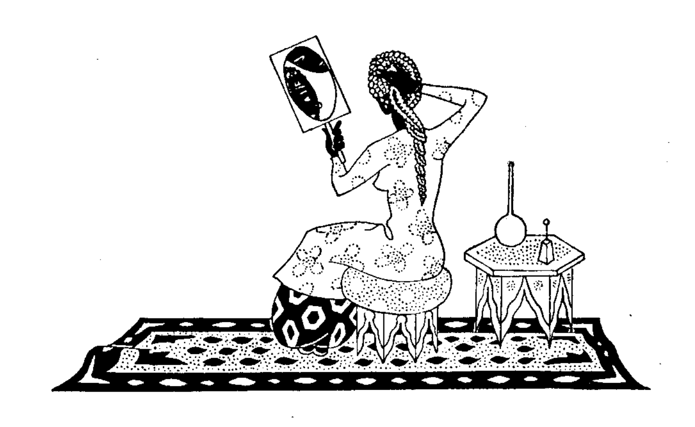
لا تزال بكواه في الذاكرة — سير الحداد

بعد أن رأت نكايه أنه لم يترك شيء فى سبيل إعادة وصيفتها ، وبعد أن استبعدت اعتزامها العزلة بوعدها لأخيها بدأت تعود على غير شعور منها إلى أنواع المتع والشئون المعتادة ، وابتهجت على الرغم منها بتأجيل أحزانها ، وأنبت نفسها أحياناً بغيظ وغضب لتحويل عقلها عن تذكر تلك التى كانت قد قررت ألا تنساها أبداً .

ثم حددت ساعة كل يوم للتأمل فى سجايا بكواه وحبها لها ، فكانت تأوى دائماً إلى مخدعها فى الوقت المحدد ، ثم تعود وعيناها منتفختان ، ووجهها تعلوه كدرة واكتئاب ، وظلت الحال كذلك بضعة أسابيع . ثم ضعف حرصها على التمسك بهذه العادة تدريجاً ، وسمحت للمشاغل الهامة الملحة أيا كان نوعها أن تؤجل الضريبة التى عليها أن تؤديها بدموعها اليومية ، ثم خضعت لأسباب أقل إلحاحاً ، ونسيت أحياناً ما كانت تخشى فى الحقيقة أن تتذكره ، وأخيراً حررت نفسها تحريراً كاملا من الآلام المفروضة عليها كل يوم .

ولم ينقص إلى الآن حبها لبكواه ، فألف من الحوادث أعادها للذاكرة ، وألف من الحاجات التى لا يستطيع أن

يسدها سوى الثقة المنبعثة عن الصداقة كثيراً ما أثار الحزن عليها . لذلك توسلت إلى إملاك ألا يكف عن البحث ، وألا يترك حيلة يمكن الحصول بها على معلومات دون أن يجربها حتى تريحها على الأقل معرفتها أن بكواه لم تقاس نتيجة الإهمال أو الكسل ، ثم قالت : « وماذا ينتظر من بحثنا عن السعادة إذا كنا نجد الحياة على هذا النحو : السعادة نفسها سبب الشقاء ؟ لماذا نحاول أن نحصل على ما لا يمكن الاحتفاظ بملكيته ؟ إننى أخشى من الآن أن أشغل قلبي بالتفوق مهما كان براقاً ، أو بالحب مهما كان رقيقاً ، وإلا فقدت ثانية ما قد فقدت أولا فى بكواه » .



الفصل السابع والثلاثون

الأميرة تسمع أخبارا عن بكواه

عاد أحد الرسل من حدود النوبة بعد كثير من الجولات غير الموفقة التي استغرقت سبعة شهور ، وكان قد أرسل في اليوم الذي أخذ فيه الوعد من الأميرة ، وأخبر أن بكواه في قبضة رئيس من الأعراب له قلعة أو حصن في أقصى حدود مصر . وهذا الأعرابي – وهو يعتمد في دخله على الغنيمة – مستعد أن يعيدها مع جاريتيها نظير مائتي أوقية من الذهب .

لم يكن الثمن موضوعاً للمناقشة ، وأصبحت الأميرة في نشوة من الفرح حينما سمعت أن وصيفتها على قيد الحياة ، وأنها قد تفتدى بمثل هذا الثمن الزهيد . ولم تستطع أن تفكر في أن تؤخر سعادة بكواه ولا سعادتها لحظة واحدة ، بل توسلت إلى أخيها أن يعيد الرسول بالمقدار المطلوب . ولما استشير إملاك لم يكن واثقاً تماماً من صدق الراوي ، وكان أكثر شكاً في وفاء الأعرابي إذا منح من الثقة أكثر مما يجب ، فقد يحتفظ بالمال والأسرى معاً . وظن أنه من الخطر أن يضعوا أنفسهم في قبضة الأعرابي بالذهاب إلى موطنه ، ولم

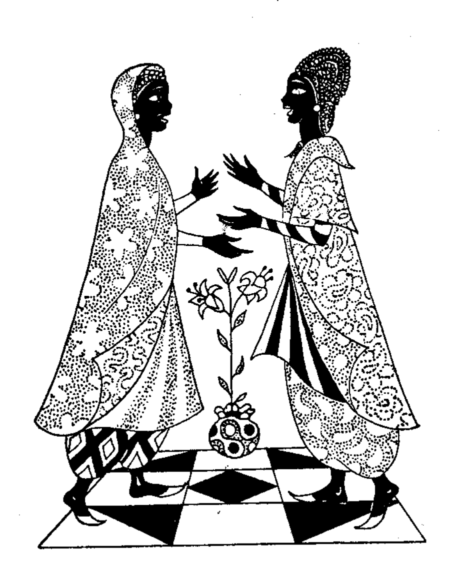
يتوقعوا أن يعرض الأعرابى نفسه إلى حد المجىء إلى الوجه البحرى حيث تستطيع قوى الباشا أن تلقى القبض عليه .

ومن الصعب المفاوضة حيث لا يثق أحد بآخر ، غير أن إملاك وجه الرسول — بعد تأمل — ليعرض أن تذهب بكواه بصحبة عشرة من الفرسان إلى دير القديس أنطونيوس الذى يقع فى صحارى الصعيد ، وهناك يقابلها نفس العدد وتدفع الفدية

ولما كانوا يتوقعون أنه لن يرفض العرض بدأوا فى الحال رحلتهم إلى الدير حتى لا يضيعوا وقتاً . وحينما وصلوا توجه إملاك مع الرسول الأول إلى حصن الأعرابى . وكان راسلاس يرغب فى الذهاب معهما ، غير أن أخته وإملاك لم يوافقا على ذلك . وراعى الأعرابى — حسب تقاليد أمته — أصول الضيافة بدقة تامة مع هؤلاء الذين وضعوا أنفسهم فى قبضته . وأحضر بعد أيام قليلة بكواه مع جاريتها برحلة مريحة إلى مكانهم المعين حيث استلم الثمن المشروط ، وأعادها مكرمة غاية التكريم إلى الحرية وإلى أصدقائها ، وتعهد أن يعيدهم إلى القاهرة بعيدين عن كل خطر من سلب أو عنف .

فتعانقت الأميرة ووصيفتها بابتهاج يجل عن الوصف ، وخرجتا معاً لتسبلا سراً دموع العطف والحنان ، وتتبادلا

عبارات الود وحمد الله تعالى . وبعد ساعات قليلة عادتا إلى قاعة الطعام بالدير . وهناك طلب الأمير من بكواه أمام كبير الرهبان وإخوانه أن تقص تاريخ مغامراتها .



الفصل الثامن والثلاثون

مغامرات السيدة بكواه

قالت بكواه : « لقد أخبرك خــدمك بالوقت الذى اختطفت فيه والطريقة التى اختطفت بها . وإن سفاجأة الحادثة قد أذهلتنى ، وكنت فى بادئ الأمر مبهوتة أكثر منى منزعجة بوجدان الخوف أو الحزن . وزاد ارتباكى سرعة فرارنا وضجيجه أثناء مطاردة الأتراك لنا . ويظهر أن الأتراك يئسوا بسرعة من اللحــاق بنا أو أنهم كانوا يخشون هؤلاء الذين يتظاهرون بتهديدهم .

ولما رأى الأعراب أنفسهم بعيدين عن الخطر أبطأوا فى سيرهم . ولما كنت أقل انزعاجاً بالعنف الخارجى بدأت أشعر بتزايد القلق فى عقلى . وبعد فترة توقفنا عن السير بالقرب من نبع تظله الأشجار فى واحــة سارة المنظر . وقد أجلسنا هناك على الأرض ، وقدم لنا مثــل ما كان يتناول أسيادنا من مرطبات ، وسمح لى أن أجلس مع جاريتى منفرادت عن الآخرين . ولم يحاول أحد أن يواسينا أو يسىء إلينا . وهنا بدأت أحس لأول مرة بجسامة بؤسى . وجلست الجاريتان تنتحبان فى صمت ، ونظرتا إلى من

حين إلى آخر تتلمسان الإغاثة والنجدة . ولم أكن أعلم ما قدر لنا من مصير ، كما لم أستطع أن أتكهن بالمكان الذى يقع فيه أسرنا ، أو من أين يأتينا أمل التحرر والخلاص . فقد كنت فى قبضة لصوص ومتوحشين ، ولم يكن لدى من الأسـباب ما يجعلنى أتوقع شفقتهم فى الوقت الذى حرمت فيه من عدالتهم ، أو أنهم يتورعون عن إشباع ما أثارهم من شهوة وما استهواهم من قسوة . فقبلت على كل حال جاريتى ، وحاولت أن أهدئ من روعهما بلفتى نظرهما إلى أننا مازلنا نعامل برفق وأدب ، وأنه لما كنا الآن فى مأمن من المطاردة فليس هناك خطر من الاعتداء على أرواحنا .

وحينما حان الوقت لصدور الأمر بامتطائنا ظهور الجياد ثانية تشبثت جاريتاى بى ، ورفضتا أن تفترقا عنى ، ولكنى أمرتهما ألا تثيرا هؤلاء الذين يملكوننا فى قبضتهم . ورحلنا بقية اليوم فى بلاد خالية من السكان والمسالك ، وجئنا مهتدين بضوء القمر إلى سفح تل كانت قد ألقت فيه بقية العصابة عصا التسيار ، وضربت فيه خيامها ، وأوقدت نيرانها . ورحب بمقدم رئيسنا أتباعه ترحيباً ينم عن الحب الجم والوفاء الخالص .

واستقبلنا فى خيمة كبيرة وجدنا فيها نساء كن يرافقن أزواجهن فى الغارة ، وقدمن أمامنا ما كن قد أعددنه من

عشاء . وأكلت لأشجع جاريتى أكثر من أن أشبع شهية فى نفسي . ولما رفعت الصحاف فرشت البسط للراحة والنوم . وكنت مجهدة ، وتمنيت أن أجد فى النوم ذلك التحرر من الآلام الذى يندر أن تضن به الطبيعة على النائمين . ولما أمرت جاريتى بناء على هـــذا أن تخلعا ملابسى لاحظت أن النسوة ينظرن إلى باهتمام عظيم ، لأنهن لم يتوقعن على ما أظن أن يروننى مطاعة فى الخدمة إلى هذا الحد . ولما خلع الجزء الأعلى من كسائى أخذن على مايظهر برونق ثيابى ، ووضعت إحداهن يدها على الوشى بخشية وحذر ، ثم خرجت وفى فترة قصيرة عادت ومعها أخرى يظهر أنها من مرتبة أعلى وذات سلطة أقوى . فحييت عند دخولها التحيـــة المعتادة ، وبعد أن قادتنى من يدى وضعتنى فى خيمة أصغر مفروشة ببسط أثمن . وقضيت هناك الليلة فى هدوء مع جاريتى .

« وبينما كنت جالسة على العشب فى الصباح جاءنى زعيم الأعراب ، ونهضت لاستقباله ، فانحنى باحترام عظيم ، وقال : « أيتها السيدة الجليلة ! إن حظى أسعد مما كنت أطمع ، فقد أخبرتنى نسائى أن فى مضاربى أميرة » . فأجبته : « سيدى لقد خدعت نساؤك أنفسهن ، وخدعنك . فلست أميرة ولكنى غريبة بائسة قصدت أن تغادر قريبا البلاد التى هى

الآن سجينة بها إلى الأبد » . فرد الأعرابى : « مهما يكن موطنك فان ثيابك وثياب جاريتيك تدل على أن منزلتك رفيعة ، وأن ثروتك عظيمة . فلماذا تظنين نفسك فى خطر أسر دائم وأنت تستطيعين أن تفتدى نفسك فى يسر وسهولة؟ إن الغرض من غاراتى هو أن أنمى ثروتى — أو بعبارة أصح— أن أجمع الجزية . فأبناء اسماعيل هم بالوراثة والطبيعة أرباب هذا الجزء من القارة . وقد اغتصبه الغزاة المتأخرون والطغاة الوضيعون . ونحن مجبرون على أن نأخذ منهم بالسيف ماعجزنا عن أخذه بالعدالة . وإن عنف الحرب وشدتها لا يسمحان بالتمييز ، فالرمح الذى يصوب نحو الإثم والسيطرة يصيب أحيانا الأبرياء الوادعين » .

قلت : « ما أقل ما توقعت أن يصيبنى هذا بالأمس .

أجاب الأعرابى : « يجب أن نتوقع دائما الحظ العاثر . ولو استطاعت عين العداوة أن تتعلم الاحترام أو العطف لأعفيت عظمة كعظمتك من الآلام والضرر ، غير أن ملائكة الكوارث ينشرون حبائلهم على الفاضل والشرير والخطير والحقير على السواء . لا تكتئبى فلست أحد بدو الصحراء القساة العصاة . وإننى أعرف قواعد الحياة المتحضرة . وسأحدد فديتك ، وأعطى جوازاً بمرور رسلك ، وأوفى بعهدى فى ميعاد دقيق مضبوط » .

« وستتبين بسهولة أننى كنت مسرورة بمجاملته . ولما وجدت أن الرغبة فى المال كانت جل همه بدأت حينئذ أظن أن خطرى قد قل ، لأننى عرفت أن المال مهما عظم مقداره يعتبر ضئيلا فى نظرك بالنسبة لخلاص بكواه . وأخبرته أنه ليس هناك سبب يدعوه لاتهامى بنكران الجميل إذا عوملت معاملة شفيقة ، وأنى سأدفع أية جزية يمكن أن تدفع لجارية من طبقة معتادة ، لكن لاينبغى أن يصر على تقويمى بوصفى أميرة . فقال إنه سيفكر فيما ينبغى طلبه وبعد أن ابتسم انحنى وانصرف .

« وسرعان ما تجمعت النسوة بعد ذلك حولى ، كل تحاول أن تكون أكثر فضولا وتجلة من الأخريات ، بل إن جاريتى نفسيهما كانتا تخدمان باحترام . ثم اتجهنا إلى الأمام فى رحلات قصيرة . وفى اليوم الرابع أخبرنى الرئيس أن فديتى مائتا أوقية من الذهب ، ولم أعده بها فحسب بل أخبرته أننى سأضيف إليها خمسين إذا عوملت أنا وجاريتاى معاملة شريفة .

« وما كنت أعرف قوة الذهب من قبل . ومن ذلك الوقت كنت قائدة الأعراب ، وكان السير اليومى يطول أو يقصر حسب أمرى ، والخيام تضرب للراحة حيث اختار . واجتمع لنا فى ذلك الوقت جمال ووسائل أخرى مناسبة للرحيل . وكانت خادمتاى دائما بجانبى . وسليت نفسى

بملاحظة أساليب أمم البدو الرحل ، مع التأمل فى بقايا العمائر القديمة التى يظهر منها أن هذه البلاد المهجورة كانت فى عصر سحيق تسرف فى اتخاذها زينة وحلية .

« وكان رئيس الأعراب رجلا أبعد من أن يكون أميا : فقد كان يستطيع السفر مسترشداً بمواقع النجوم أو البوصلة . وقد حدد فى الغارات المتشعبة أجـدر الأماكن بملاحظة العابرين . ولفت نظرى إلى أنه كلما قل التردد على الأماكن وصعب الوصول إليها احتفظت عمائرها وآثارها بحالة أفضل ، وكلما كثر السكان أسرع إليها الخراب . والجدران أسهل فى التزويد بالأحجار من المحاجر ، والقصور والمعابد تهدم لتقام مرابط للخيول من الصوان وأكواخ من الرخام السماقى .



الفصل التاسع والثلاثون

بقية مغامرات بكواه

« انتقلنا هنا وهناك على هذا النحو بضعة أسابيع ، إما لإرضائى كما زعم رئيسنا ، وإما لمصلحة خاصة به كما ارتبت أنا . وحاولت أن أتظاهر بالرضا حيث لا يجدى العبوس ولا الغضب . وأفضت بى هذه المحاولة إلى الكثير من هدوء بالى ، غير أن قلبي كان دائماً مع نكايه . وأربت هموم الليل على تسليات النهار إلى حد كبير . وجاريتاى اللتان وجهتا كل عنايتهما نحو سيدتهما ارتاح بالهما منذ رأتانى أعامل باحترام ، واتجهتا بكل جوارحهما فرحتين لمرفهات عرضية . وكنت مسرورة بسرورهما ، ومملوءة حيوية بثقتهما . وفقدت حالتى الكثير من فزعها منذ وجدت أن الأعرابى قد ذرع البلاد طمعاً فى الثروة فحسب . والجشع رذيلة سهلة الانقياد ، وذات طابع واحد ، أما الأمراض العقلية الأخرى فتختلف باختلاف أبنية العقل وتراكيبه : فما يرضى كبرياء أحدها قد يسيء إلى كبرياء آخر . ولكن هناك طريق سهل ميسور لإرضاء الجشع مؤداه : أحضر النقود ولن يضن عليك بشيء .

« وأخيراً وصلنا إلى مسكن رئيسنا . وهو بيت متين رحب مبنى بالحجر فى جزيرة من جزر النيل تقع — كما أخبرت — تحت المنطقة الحـــارة . وقـــال الأعرابى : « أيتها السيدة ! ستر تاحين بعد رحلتك أسابيع قليلة فى هذا المكان حيث تعتبرين نفسك ملكة عايه . وإن عملى هو القتال ، ولذا اخترت هذا المقام الخفى الذى أستطيع أن أغير منه غير ملاحظ ، كما أستطيع أن آوى إليه غير مطارد . ويمكنك أن ترتاحى الآن فى أمن وسلامة ، وهنا قليل من المسرات ، غير أنه لا يوجد خطر . ثم قادنى إلى الحجر الداخلية . وبعد أن أجلسنى على أنفس أريكة سجد بين يدى. أما نساوه الـــلائى اعتبرننى منافسة لهن فقد نظرن إلى بحقد وضغينة ، ولكن بمجرد أن أخبرن بأننى سيدة عظيمة إحتجزت للفدية فقط بدأن يتنافسن بعضهن مع بعض فى الخضوع لى واحترامى .

« وبعد أن اطمأننت ثانية بتأكيدات جديدة عن تحررى السريع صرفتنى طرافة المكان بضعة أيام عن الجزع . وقد أشرفت أبراجه على الريف إلى مسافة بعيدة ، وأطلت على الكثير من منعطفات النهر . وفى النهار تنقلت من مكان إلى آخر لأن دوران الشمس نوع رونق المنظر ، فرأيت كثيراً من الأشياء التى لم أرها مطلقاً من قبل . والتماسيح وعجول

البحر منتشرة فى هذه المنطقة غير الآهلة بالسكان . وكثيراً ما نظرت إليها بفزع رغم أننى عرفت أنها لا تستطيع إيذائى . وتوقعت أن أرى أحياناً عرائس الماء التى وضعها — كما أخبرنى إملاك — الرحالون الأوربيون فى النيل . وحينما سألت عنها ضحك الأعرابى لسذاجتى .

« وفى الليل كان يصحبنى الأعرابى دائماً إلى برج أقيم منفرداً للأرصاد السماوية . وهناك حاول أن يعلمنى أسماء النجوم ومسالكها . ولم يكن لى ميل كبير لهذه الدراسة ، غير أن التظاهر بالاهتمام كان ضرورياً لأرضى معلمى ، وقد كان عظيم الاعتزاز بمهارته وكفايته . ووجدت بعد فترة قصيرة ألا بد من بعض الأعمال لأذهب سأم الوقت الذى كان يقضى دائماً فى نفس الأشياء . لقد كنت متعبة من النظر فى الصباح إلى الأشياء التى كنت قد انصرفت عنها مجهدة فى المساء . ولهذا كنت راغبة فى النهاية أن أرصد النجوم خيراً من أن أظل بلا عمل . غير أننى لم أستطع دائماً أن أجمع أفكارى . وكثيراً ما كنت أفكر فى نكايه فى الوقت الذى تصورنى فيه الآخرون أتأمل السماء . وسرعان ما ذهب الأعرابى بعد ذلك إلى غارة أخرى . وحينئذ كان سرورى الوحيد فى أن أتحادث مع جاريتى حول الحادث الذى اختطفنا فيه والسعادة التى سوف نتمتع بها فى نهاية أسرنا » .

قالت الأميرة : « كانت هناك نساء فى قلعة أعرابيك ، فلماذا لم تتخذى منهن رفيقات لك ؟ ولماذا تجلسين وحدك طعامهم خامل فى المكان الذى وجدن فيه عملا أو تسلية ؟ أو لماذا لم تستطيعى أن تحتملى أشهراً قليلة الحالة التى حكم عليهن بها إلى الأبد ؟ » .

فأجابت بكواه : « لم تكن تسليات النسوة سوى لعب أطفال لا يمكن أن تشغل عقلا اعتاد أن يشغل بما هو أقوى من العمليات . ولقد استطعت أن أعمل كل ما ابتهجن بعمله بوسائل حسية فقط بينما كانت أفكارى وخواطرى تطير إلى القاهرة . كن يجرين من غرفة إلى غرفة كما يثب الطائر فى قفصه من سلك إلى سلك ، ويرقصن لمجرد الحركة كما تمرح الحملان فى المروج . وتظاهرت إحداهن أحياناً بأنها أصيبت حتى يأخذ الباقى حذرهن . وأخفت إحداهن نفسها حتى تبحث عنها أخرى . وتقضين بعض وقتهن فى مراقبة الأجسام الخفيفة تطفو فوق النهر ، وبعضه فى ملاحظة الأشكال المتنوعة التى تقطعت بها السحب فى السماء .

« وكان شغل الإبرة عملهن الوحيد . وقد ساعدتهن أنا وجاريتاى فيه أحيانا . ولكنك تعلم أنه ما أسهل الانجارى العقل الأنامل فيشرد منها . ولست ترتاب فى أن الأسر وفراق نكاية لا تغنى فيهما الأزهار الحريرية عزاء وسلوى .

« كما أنه لم يرج الكثير من القناعة والرضا فى محادثتهن ، إذ عم يتوقع منهن أن يتحدثن ؟ إنهن لم يرين شيئا لأنهن قد عشن من شرخ شبابهن فى هــذه البقعة المحدودة ، ولم يستطعن أن يعرفن ما لم يرين فهن لا يستطعن القراءة . ولم يفكرن إلا فى الأشياء القليلة التى كانت واقعة تحت أنظارهن . وندر أن توجد لديهن أسماء لأى شىء غير ملابسهن وطعامهن . ولما كنت أقوى منهن شخصية كثيراً ما كنت أدعى لأضع حداً لشجارهن . وقد أنهيته بقدر ما استطعت من العدل والإنصاف . ولو أمكن أن يسرى عنى الاستماع إلى شكايات إحداهن لشغلت أغلب وقتى قصصهن الطويلة ، ولكن كانت بواعث حقدهن تافهة إلى حد أننى لم استطع الاستماع دون أن أقاطع القصة » .

قال راسلاس : « كيف يستطيع الأعرابى الذى صورته رجلا على جانب غير عادى من الثقافة والتهذيب أن يسر بحريمه حينما يكون مليئا بمثل هؤلاء النسوة فقط ؟ هل هن جميلات فاتنات ؟ » .

قالت بكواه : « إنه لايعوزهن ذلك الجمال الوضيع غير الجذاب الذى يعيش مجردا من الحيوية أو السمو ، وغير مصحوب بنشاط الفكر أو وقار الفضيلة . غير أن مثل هذا الجمال بالنسبة لرجل كالأعرابى لم يكن سوى زهرة اقتطفت

عرضا ثم قذف بها من غير عناية . ومهما تكن المسرات التى يجدها بينهن لم تكن من النوع الناشئ عن الصداقة أو طيب العشرة . وحينما كن يلعبن حوله كان ينظر إليهن بكبرياء غير مكترث بهن . وحينما تنافسن فى نيل رضاه وتقديره انصرف عنهن أحياناً ضائقاً برما . ولما لم تكن لهن معرفة لم يستطع حديثهن أن يذهب شيئاً من سأم الحياة . ولما لم يكن لديهن اختيار لم يثر تعلقهن به — أو تظاهرهن بالتعلق به — فى نفسه كبرياء ولا رضا ولم يسم فى نظر نفسه بسبب ابتسامات امرأة لم تر أى رجل آخر سواه . كما أنه لم يتأثر بتقدير لم يستطع أبداً أن يعرف مدى ما فيه من إخلاص ، والذى يغلب أن يبذل لإيلام منافس أكثر مما يبذل لإبهاج موضع التقدير . فذلك الذى أعطاه ونلنه من حب كان مجرد توزيع — لم تصحبه عناية واكتراث — لنوافل وقته بينهن . ومثل هذا الحب يستطيع أن يمنحه الإنسان لمن يزدريه . ومثله لا يتضمن أملا أو خوفاً ، كما أنه لا ينطوى على فرح أو حزن » .

قال إملاك : « لك أيتها السيدة من الأسباب ما يجعلك تظنين نفسك سعيدة بالإفراج عنك على هذا النحو من السهولة . كيف استطاع عقل متشوف للمعرفة أن يرغب — وسط مجاعة عقلية — فى فقد وليمة مثل حديث بكواه ؟ » .

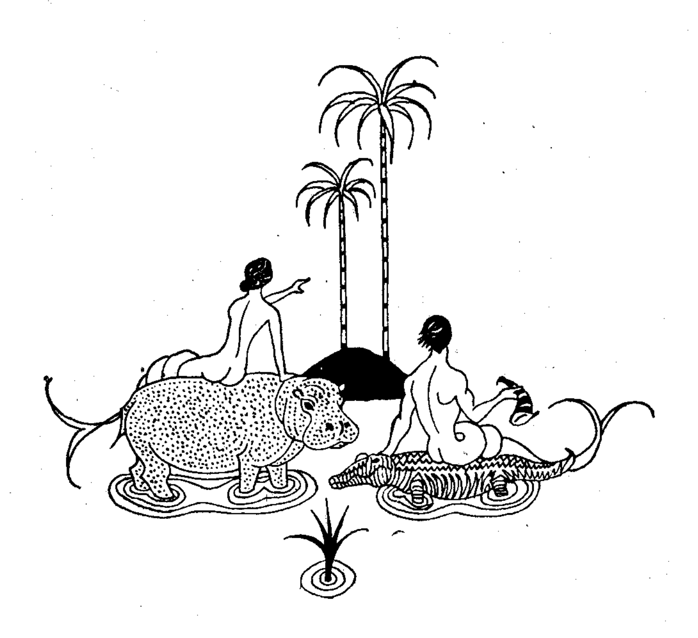
فأجابت بكواه : « إننى ميالة للاعتقاد بأنه كان وقتاً ما فى حالة تردد . لأنه كلما اقترحت أن يرسل رسولا إلى القاهرة التمس رغم وعده عذراً للمماطلة والتأجيل. وبينما كنت محتجزة فى منزله قام بكثير من الغارات إلى البلاد المجاورة . فلو أن غنيمته كانت معادلة لرغباته ربما رفض أن يحررنى . وعاد دائما مجاملا ، وقص على مغامراته ، وأبهجه أن يسمع ملاحظاتى ، وحاول أن ينمى معرفتى للنجوم . وحينما ألححت عليه أن يرسل رسائلى هدأنى بكل ما يقتضيه الشرف والإخلاص من عهود . ولما استنفد جميع الوسائل المقبولة للمماطلة والتأجيل حرك جنده ، وتركنى أحكم فى غيبته . وكنت متأثرة كثيراً بهذا التأجيل المقصود ، كما كنت أخشى أحياناً أن أُنسَى ، وأنكم تتركون القاهرة فاضطر إلى أن أختم أيامى فى إحدى جزر النيل .

« وازداد فى النهاية حزنى وبؤسى ، فاستقبلته استقبالاً فاتراً حتى إنه كان يتحدث فى أغلب الأحيان هنيهة إلى جاريتى . أما أن يقع فى غرامهما أو غرامى فكلا الأمرين مهلك على السواء ، لذلك لم أكن سعيدة بنمو صداقتنا . ولم يطل قلقى لأنه حينما استرددت بعضاً من الانشراح عاد إلى ، فلم أستطع الفرار من ازدراء قلقى السابق .

« ولم يزل يؤجل فى طلب فديتى ، وربما لم يصمم أبداً

على إرساله لو لم يجد مندوبك طريقه إليه . والذهب الذى لم يسع هو إليه لم يستطع أن يرفضه حينما قدم إليه . فأسرع فى الاستعداد لرحيلنا إلى هناك إسراع رجل تحرر من ألم نزاع داخلى ، واستأذنت رفيقاتى فى المنزل فودعننى غير مكترثات مطلقاً » .

وبعد أن سمعت نكايه قصة وصيفتها نهضت وعانقتها ، ومنحها راسلاس مائةِ أوقية من الذهب فأهدتها إلى الأعرابى بدلا من الخمسين التى وعدته بها .



الفصل الأربعون

حياة عالم من العلماء

وعادوا إلى القاهرة ، وكانوا مسرورين جداً باجتماعهم معاً حتى إنه لم يخرج أحدهم من البيت إلا قليلا . وبدأ الأمير يكلف بالتعليم ، وأعرب لإملاك ذات يوم عن تصميمه على أن يهب نفسه للعلم ، وأن يقضى ما تبقى من أيامه فى عزلة ينقطع فيها للعلم والأدب .

فأجاب إملاك : « قبل أن تضع اختيارك الأخير يجب أن تختبر أخطاره ، وأن تتحادث مع بعض هؤلاء الذين هرموا فى عزلة لا رفيق لهم فيها سوى أنفسهم . لقد تركت الآن فقط مرصداً لأعلم علماء الفلك فى العالم . قضى صاحبه أربعين عاماً فى مراقبة لا تكل لحركات الأجرام السماوية وظواهرها ، وأقحم نفسه فى إحصاءات حسابية لا نهاية لها . وهو يسمح لقليل من الأصدقاء مرة كل شهر أن يستمعوا إلى استنتاجاته ويتمتعوا با كتشافاته . وقد قدمت إليه بوصفى أحد رجال العلم الجديرين بعنايته . والرجال ذوو الأفكار المتنوعة والحديث

الطاق يرحب بهم عادة لدى هؤلاء الذين انحصرت أفكارهم طويلا فى نقطة واحدة فانسلت صور الأشـــياء الأخرى من مخيلتهم . وقد أبهجته بملاحظاتى ، وابتسم لقص رحلاتى ، وكان فرحاً لنسيانه الأفلاك والأبراج وهبوطه لحظة إلى العالم السفلى .

« وفى اليوم التالى من العطلة جددت زيارتى ، وكنت حسن الحظ أن يرتاح لحديثى وقصصى ثانية ، فخفف ما اعتاد من القيود الدقيقة الشديدة ، وأذن لى بالدخول كلما شئت . ووجدته دائماً مشغولا ، وسر دائماً أن يتحرر من مشاغله بأحاديثى وقصصى . ولما كان كل واحد منا يعرف الكثير مما يرغب الآخر فى تعلمه تبادلنا الأفكار باغتباط عظيم . وأدركت أننى كنت أحظى كل يوم بالمزيد من ثقته ، ووجدت دائماً سبباً جديداً للإعجاب بعمق تفكيره ، فإدراكه جامع شامل ، وذاكرته محيطة دقيقة الحفظ ، وكلامه مرتب وتعبيره واضح .

« ونزاهته وميله للخير معادلان لعلمه . وهو على استعداد لأن يترك أعمق بحوثه وأحب الدراسات إليه متى سنحت فرصة لعمل الخير بنصيحته أو بماله . ويسمح لهؤلاء الذين يحتاجون مساعدته بالدخول إلى أشد الخلوات المغلقة إحكاماً فى أكثر أوقاته ازدحاماً بالعمل . ويقول : « مع أننى أبخل على نفسى

بالراحة والتمتع لن أوصد بابى دون الإحسان والصدقة . فالإنسان يباح له أن يتأمل السموات ، ولكنه مكلف بتنفيذ ما تنطوى عليه الفضيلة » .

قالت الأميرة : « لا بد أن يكون هذا الرجل سعيداً » .

فقال إملاك : « لقد كثرت زياراتى له فى أغلب الأحيان كثرة مطردة ، فكنت أزداد فى كل مرة افتتاناً بحديثه . لقد كان سامياً فى غير كبر ، مهذباً فى غير تكلف ، معبراً عن آرائه فى غير مباهاة . ولقد كنت من رأيك أولا أيتها الأميرة العظيمة ، وظننته أسعد بنى الإنسان ، وكثيراً ما هنأته على النعمة التى تمتع بها فتظاهر غير مكترث بأنه لم يسمع شيئاً سوى مديح حاله . وكان دائماً يجيب عنه إجابة عامة ، ويحول الحديث إلى بعض الموضوعات الأخرى .

« ومع رغبته هذه فى السرور وعمله الممتع سرعان ما تخيلت أن خاطراً أليماً يضغط على عقله . وكثيراً ما نظر بجد واهتمام إلى الشمس وخفض من صوته أثناء الكلام . وكان يتفرس فى أحياناً فى صمت حينما نكون منفردين بصورة رجل تطلع إلى أن يفضى إلى بما قرر إلى ذلك الوقت أن يكبت فى نفسه . وكثيراً ما أرسل إلى ملحا فى أن أسرع فى إجابة طلبه ، ومع ذلك

حينما وصلت إليه لم يكن لديه ما يقول مما هو غير عادى. وأحيانا كان يسترجعنى عند خروجى من عنده ، ثم يقف لحظات قليلة يأذن لى بعدها بالانصراف » .



الفصل الواحد والأربعون

الفلكى يكتشف سبب قلقه

« وأخيراً حان الوقت الذى أفلت فيه السر من تحفظه ، كنا جالسين معا بالأمس فى برج منزله نرصد ظهور بع « المشترى » . وفجأة هبت عاصفة ملأت السماء لسحب ، وأفسدت رصدنا ، فجلسنا هنيهة صامتين فى لظلام ، ثم وجه الخطاب إلى فى هذه الكلمات : « إملاك ! لقد اعتبرت صداقتك طويلا أعظم نعمة فى حياتى . وإن النزاهة من غير معرفة ضعيفة ولا قيمة لها ، كما أن المعرفة ن غير نزاهة خطرة ومخيفة . ولقد وجدت فيك كل الصفات المطلوبة للثقة وهى : الميل للخير والتجربة والجلد . ولقد عهد إلى منذ أمد بعيد بمنصب يجب أن أتركه سريعاً عند نداء الطبيعة . وسيسعدنى فى ساعة العجز والألم أن أسلمه لك » .

« فظننت أن هذه الشهادة قد شرفت نفسى ، وأكدت اه أن كل ما يؤدى إلى سعادته يضيف أيضاً إلى سعادتى .

فقال : « استمع يا إملاك إلى مايصعب عليك تصديقه . لقد هيمنت خمس سنوات على تنظيم الجو وتوزيع الفصول . فأصغت الشمس لإملائى وتكليفى ، وانتقلت من مدار إلى مدار

بتوجيهى ، وهطلت مياه السحب بدعوتى ، وفاض النيل بأمرى. لقد حلت دون غضب « الشِّعْرَى » ، وخففت من حدة « السرطان » . غير أن الرياح وحدها من بين عناصر الطبيعة لم تخضع إلى الآن لسلطانى . ولقد هلكت أفواج من الناس بسبب زوابع الاعتدالين . وقد وجدت نفسى غير قادر على منعها أو تعويق سيرها . ولقد أدرت هذا المنصب بعدالة تامة ، وجعلت لأمم الأرض المختلفة نصيبا عادلا من الغيث وضياء الشمس . فماذا كان يكون بؤس الكرة الأرضية لو أننى خصصت السحب بمناطق معينة ، أو لو أننى قصرت الشمس على جانب واحد من جانبى خط الاستواء ؟ » .



الفصل الثاني والأربعون

رأى الفلكى يوضح و يبرر

« وأظن أنه تبين فى خلال ظلام الحجرة بعض علامات الانذهال والشك لأنه واصل كلامه على النحو الآتى :

« وإنه لايدهشنى ولا يغضبنى ألا أصدق بسهولة . وقد أكون أول كائن إنسانى عهد إليه بهذه الوديعة ، كما أنى لا أدرى أأعتبر هذا الامتياز ثوابا أم عقابا ، فإننى منذ حزته كانت سعادتى أقل كثيرا منها قبل حيازته . ولم يستطع شىء سوى الشعور بنبل القصد إقدارى على أن احتمل نصب المراقبة المستمرة » .

قلت : « وكم من الزمن قضى سيدى فى الإشراف على هذا المنصب العظيم ؟ » .

قال : « منذ عشر سنوات تقريبا انتهت بى أرصادى اليومية لتغيرات السماء إلى أن أفكر فى أنه لو كان لى سلطان على الفصول لاستطعت أن أهب خيرات أعظم لسكان الأرض . وتمكن هذا الخاطر من عقلى ، فجلست أياما وليالى فى مملكة خيالية ، غامرا البلاد القريبة والبعيدة بغيث الخصوبة ، ومتبعا كل سقوط للمطر بنسبة مناسبة من ضوء الشمس .

ولم تكن لى إلى الآن سوى الرغبة فى عمل الخير ، ولم أتصور أنه ستكون لى القدرة عليه مطلقا .

« وذات يوم حينما كنت أنظر إلى الحقول الذابلة بتأثير الحرارة شعرت فى نفسى بأمنية مفاجئة هى تمكنى من إسقاط المطر على الجبال الجنوبية ورفع مستوى النيل إلى درجة الفيضان . وبسبب سرعة تخيلى أمرت المطر أن يهطل . ولما وازنت بين الوقت الذى صدر فيه أمرى ووقت الفيضان تحققت أن السحب قد استجابت لندائى » .

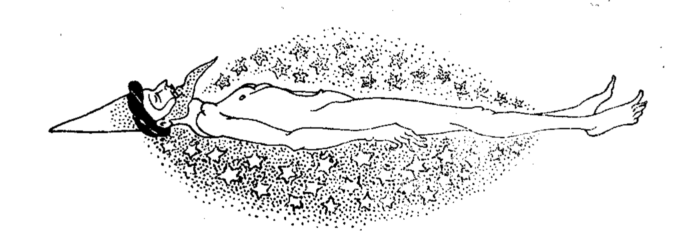
قلت : « ألا يحتمل أن سببا آخر قد نشأ عنه هـــذا الاتفاق ؟ إن النيل لا يرتفع دائما فى نفس اليوم » .

قال جزعا : « لا تعتقد أن مثل هذه الاعتراضات تغيب عنى . لقد فكرت طويلا فى الاتجاه المضاد ليقينى ، وجاهدت ضد الحقيقة بأقصى مايكون من العناد والمكابرة ، وارتبت أحيانا فى أننى مجنون ، وما كنت لأمنح هذا السر إلا لرجل مثلك يستطيع التميز بين العجيب والمستحيل ، وبين الذى يصعب تصديقه والباطل » .

قلت : « لماذا تصف يا سيدى ما تعرف أنه حق — أو ما تظن أنك تعرفه كذلك — بأنه صعب التصديق ؟ » .

قال : « لأننى لا أستطيع أن أقيم عليه أى برهان ظاهرى . وإنى أعرف أصول البرهنة تمام المعرفة فلا أحتم

على آخر أن يتأثر بما هو يقين عندى وهو لايستطيع أن يكون مثلى شاعرا بقوته . ولهذا لن أحاول أن أكسب التصديق بالنزاع والمجادلة ، ويكفينى أن أشعر فى نفسى بهذه المقدرة التى حزتها طويلا ، ومارستها كل يوم . غير أن حياة الإنسان قصيرة ، وضعف الشيخوخة يتكاثر على ، وسيأتى سريعا الوقت الذى لابد أن يمتزج فيه منظم السنة الشمسية بالتراب. ولقد أقلقنى طويلا الاهتمام بتعيين خلف لى ، فقد قضيت الليل والنهار أوازن بين الشخصيات التى وصلت إلى علمى ، فلم أجد مع ذلك أحدا جديرا بهذا سواك أنت » .



الفصل الثالث والأربعون

الفلكي يترك لاملاك توجيهاته

« فأصغ إذن إلى ما سأنبئك به مع ما تقتضيه مصلحة العالم من عناية واهتمام . وإذا اعتبرت مسئولية الملك شديدة الصعوبة رغم أنه لا يرعى سوى ملايين قليلة لا يملك لهم كثيراً من الضر أو النفع فما أشد قلق من تتوقف عليه حركة عناصر الطبيعة ، وهبتا الضوء والحرارة الخطيرتان . لهذا أصغ إلى باهتمام .

« لقد فكرت تفكيراً جاداً فى مركز الأرض والشمس ، وكونت عدداً لا يحصى من الخطط غيرت فيها موقعهما ، وحولت محور الأرض تارة ، ونوعت مدار الشمس تارة أخرى . غير أننى قد وجدت من المحال أن أضع نظاماً تزداد به منفعة العالم : فما تكسبه منطقة تخسره أخرى مهما تصورت من التغيير والتبديل حتى مع استبعاد الأجزاء النائية من المجموعة الشمسية التى لا نعرف عنها شيئاً . فلا ترض كبرياءك إذن — أثناء إدارتك للسنة الشمسية — بابتداع البدع . ولا تسر نفسك بفكرة

أنك تستطيع تخليد ذكرك بتغيير نظام الفصول ، فذكرى الشر ليست شهرة مرضية . كما لا ينبغي أن تسيطر عليك عاطفتك أو مصلحتك الخاصة ، فلا تحرم أبداً البلاد الأخرى من المطر لتغمر به بلادك ، ففي النيل الكفاية لنـــا » .

« فوعدت أنني حينما أحوز هذه المقدرة سأستخدمها بنزاهة تامة . فصرفني ضاغطاً على يدي ، ثم قال : « سيرتاح الآن قلبي . ولم يعد حبي للخير يفسد على هدوء بالي . لقد وجدت رجلا من الحكماء استطيع — وأنا منشرح الصدر — أن أعهد إليه بميراث الشمس » .

استمع الأمير إلى هـــذه القصة باهتمام بالغ ، غير أن الأميرة ابتسمت ، أما بكواه فقد استغرقت في الضحك إلى حد التشنج . قال إملاك : « ليس من الكرم ولا من الحكمة أيتها السيدتان أن تسخرا من أشد البــلايا البشرية . فقليل من الناس يستطيع أن يحصل على ما حصل عليه هذا الرجل من معرفة ، وقليل منهم يستطيع أن يمارس فضائله ، غير أنه لا يأمن أحد أن يصاب بمصيبته . وإن أشد أنواع القلق رعباً وخطراً في حالتنا الراهنة هو عدم التأكد من دوام العقل عند الإنسان » .

فاحتشمت الأميرة ، وخجلت الوصيفــة . ولما كان تأثر راسلاس أعمق سأل إملاك عن أمراض العقل هذه ، وعن مدى انتشارها ، وعن الوسائل التى عوجلت بها لحصرها فى نطاق ضيق .



الفصل الرابع والأربعون

السيطرة الخطرة للخيال

أجاب إملاك : « إن اختلال العقل يحدث أكثر كثيراً مما يعتقد ببساطة المراقبون قصار النظر . وإذا كانت الدقة التامة رائدنا فى كلامنا لا يحتمل أن يوجد عقل إنسان فى حالته السليمة . إذ ليس هناك إنسان لا يتغلب خياله أحياناً على عقله . وليس هناك من يستطيع أن يوجه انتباهه توجيهاً كاملا بإرادته ، وتأتى أفكاره وتذهب بأمره . ولن يوجد من لا تعذبه أحياناً خواطر عقله الوهمية ، وتضطره إلى أن يأمل أو يخاف متجاوزا فى ذلك حدود الاحتمال الرزين اليقظ للأمل أو الخوف . وكل سيطرة للخيال على العقل درجة من درجات الجنون ، غير أن هذه السيطرة لا يراها الآخرون ما دمنا نستطيع ضبطها واعتراض طريقها ، كما أنها لا تعتبر بأية حال حرماناً من القوى العقلية . إنها لا تدعى جنوناً إلا حينما نعجز عن ضبطها ، وتؤثر تأثيراً ظاهرا فى كلامنا أو عملنا .

« ويكثر أن يكون لهو أولئك الذين يغالون فى الابتهاج بالتأمل الصامت هو إشباع قوة الخرافة وإطلاق الخيال يحلق فى الفضاء . وحينما نكون منفردين لا نكون دائماً مشغولين .

والتفكير المجهد يبلغ من العنف حدا لا يستمر معه طويلا . وحماسة البحث تفسح الطريق أحياناً للخمول أو القناعة بالقليل. ومن لا يجد شيئاً ظاهرياً يستطيع أن يسرى عنه لا بد أن يجد السرور فى أفكار نفسه ، ولا بد أن يتصور نفسه على غير حقيقتها ، لأن المرء لا يسعده أن يعرف حقيقة نفسه . ثم يتبحر فى خضم لاحد له من الأزمنة المقبلة ، وينتقى من جميع الحالات القابلة للتخيل تلك التى يرغبها أكثر من غيرها للحظة الراهنة ، ويسرى عن رغباته بمتع مستحيلة ، ويمنح كبرياءه ملكا لا يمكن الحصول عليه . فالعقل ينتقل من منظر إلى منظر ، ويوحد جميع المسرات بسائر تشكيلاتها ، ويشغب فى مباهج لم تستطع الطبيعة ولا الحظ — بكل ما فيهما من سخاء — أن يمنحاه إياها .

« ويستأثر بالانتباه على مر الزمن بعض سلسلات معينة من الأفكار ، ويرفض جميع ما عداها مما يرضى به العقل نفسه . ويلتجئ العقل فى العمل أو الراحـــة إلى الفكرة المصطفاة ، ويعيش على الباطل الخلاب كلما كدرته مرارة الحقيقة . ويتوطد حكم الخيال تدريجاً . إنه ينمو متغطرساً ، ويصبح على مر الزمن حاكما مستبدا . ثم تبدأ الخرافات تعمل كأنها حقائق ، وتتمكن الآراء الباطلة من العقل ، وتنقضى الحياة فى أحلام من السرور المفرط أو العذاب الأليم .

« هذا يا سيدى أحد أخطار العزلة التى أقر الزاهد بأنها لاتضيف دائما إلى أعمال الخير ، والتى برهنت مأساة الفلكى على أنها ليست دواما متفقة مع الحكمة » .

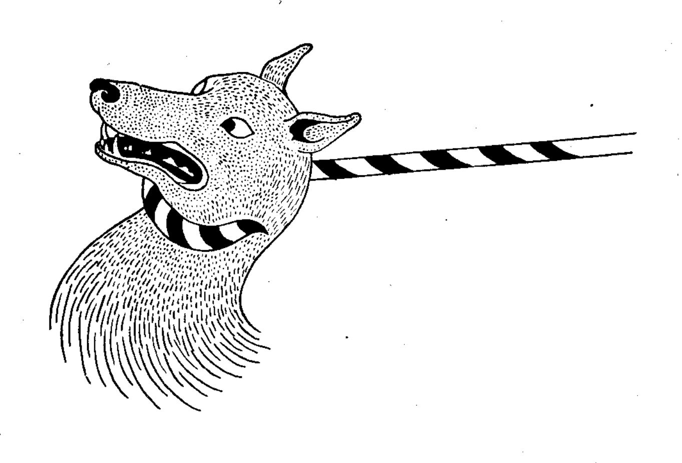
قالت الوصيفة : « لن أتخيل نفسى بعد الآن ملكة على الحبشة . فكثيراً ماقضيت الساعات — التى أطلقت الأميرة لى فيها الحرية — فى ترتيب الاحتفالات وتنظيم البلاط ، فقمعت كبرياء القوى وأجبت التماسات الفقير . لقد شيدت قصورا جديدة فى مواقع أكثر بهجة وفتنة ، وغرست الأحراش على قمم الجبال ، وابتهجت بما يبذله الملوك من جود وسخاء ، حتى دخلت الأميرة وقد نسيت تقريبا أن أركع بين يديها » .

وقالت الأميرة : « وأما أنا فلن أسمح لنفسى بعد الآن أن أمثل دور الراعية فى أحلام يقظتى . فكثيرا ما هدأت أفكارى بأعمال الرعاة البريئة الوادعة حتى توهمت أنى أسمع فى حجرتى الرياح تصفر ، والنعاج تثغو . وحررت أحيانا الحملان مما عرقل سيرها فى الدغل ، وناضلت آونة الذئب بعصاى . ولى ثوب كثياب جوارى القرى ألبسه ليساعد خيالى ، وناى أعزف عليه نغما حالما ، وأتوهم نفسى فى مقدمة قطعانى » .

قال الأمير : « إنى اعترف بأن إشباع الرغبة الوهمية أخطر من إشباع بهجتك . فكثيرا ما حاولت أن أتصور أنه

من الممكن إقامة حكومة كاملة يجب أن تقمع بها الأخطاء والآثام ، وتصلح جميع الرذائل ، وتعيش الرعايا جميعا فى هدوء وطهارة . وقد نشأ عن هذه الفكرة عدد لا يحصى من خطط الإصلاح ، كما أنها أملت كثيرا من القوانين النافعة والمراسيم المفيدة . كانت هذه هى اللهو — وأحيانا العمل — فى عزلتى . وإنه ليقشعر بدنى حينما أفكر فى أننى قد افترضت ذات مرة موت أبي وإخوتى وأنا أقل ما أكون ألما وحزنا » .

وعلق إملاك قائلا : « هذه هى آثار الخطط الوهمية . وحينما نبدأ فى تكوينها تتبين لنا استحالتها ، غير أننا نألفها تدريجيا ، ثم تختفى حماقتها عن أنظارنا على مر الزمن » .



الفصل الخامس والأربعون

حديث مع شيخ هرم

وكان الليل قد ولى شطر كبير منه فنهضوا للعودة إلى البيت . وبينما كانوا يسيرون محاذين لضفة النيل مبتهجين بنور القمر المترجرج على صفحة الماء رأوا من مسافة قريبة شيخا كثيرا ما استمع إليه الأمير فى مجتمع الحكماء . ثم قال الأمير : « ها هو ذا الرجل الذى سكنت السنين وجداناته ، ولكنها لم تلبد عقله بالغيوم . فلنختم أبحاث الليلة بسؤاله عن رأيه فى حاله الخاصة علنا نعرف إن كان الشباب وحده هو الذى عليه أن يكافح بكدر ومضايقة ، وتدخر أفضل الآمال للجزء الأخير من الحياة » .

وهنا اقترب الحكيم وحياهم ، فدعوه ليشاركهم فى سيرهم ، وأطالوا الحديث فيما لا طائل تحته فترة من الزمن كما يفعل الأصـــدقاء وقد جمعت بينهم المصادفة . وكان الشيخ منشرح الصدر وكثير الكلام . وبدا الطريق بصحبته أقصر من حقيقته . وسره أن يجد نفسه موضع عنايتهم ، فصحبهم إلى منزلهم ، ودخل – بدعوة من الأمير – معهم ،

فأجلسوه فى صدر المجلس ، ووضعوا أمامه النبيذ والفواكه المجففة .

وقالت الأميرة : « سيدى لابد أن نزهة المساء تعطى لرجل من رجال المعرفة مثلك مباهج ومسرات يشق على الجهال والشباب تصورها . فأنت تعرف خصائص كل ما ترى وأسبابه : أنت تعرف القوانين التى بها يجرى النهر ، والأزمنة التى تتم فيها الكواكب دوراتها . وكل شىء لا بد أن يحملك على التأمل ، ويجدد شعورك بوقار نفسك » .

فأجاب : « أيتها السيدة لِينعم المَرِح والقوى بنزهاته . وحسب الشيخوخة السكينة والهدوء ، إذ العالم قـد فقد فى نظرى طرافته : إننى أتطلع حولى فأرى ما أتذكر أننى قد رأيته فى أيام أسعد . واستلقى بجانب شجرة فأفكر فى أننى جادلت مرة فى ظل هذه الشجرة نفسها صديقاً صامتاً الآن فى قبره حول الفيضان السنوى للنيل . وأرمى ببصرى إلى أعلى ، وأثبته على القمر المتغير فأفكر بحسرة وألم فى تقلبات الحياة . إننى لم أعد أجد البهجة فى الحقائق المادية لأنه ماذا عساى أن أفعل بتلك الأشياء التى عما قريب أغادرها ؟ » .

قال إملاك : « قد تسر نفسك على الأقل بذكرى حياة شريفة ونافعة ، وتتمتع بالمديح الذى يجمع الكل على خصك به » .

قال الحكيم متأوهاً : « المدح للشيخ الفانى نغمة جوفاء : فليس لى أم تبتهج بسمعة ابنها ، ولا زوج تسهم فى تكريم زوجها . لقد عشت بعد أصدقائى ومنافسى . وليس هناك الآن شىء اهتم به اهتماماً كبيراً ، لأن مصالحى تنتهى بانتهائى . فالشباب يبتهج بالثناء لأنه يعتبر ضماناً لخير مستقبل ، ولأن مسرح الحياة أمامه مترامى الأطراف . أما بالنسبة لمن يتدهور الآن نحو الهرم والعجز مثلى فهناك قليل نخشاه من ضغينة الناس ، وأقل من القليل لا يزال يرجوه من عطفهم أو تقديرهم . إنه لا يزال هناك شىء يستطيعون أن يسلبونى إياه ، ولكنهم لا يستطيعون أن يمنحونى شيئاً . فالثروة الآن لا قيمة لها . والأعمال السامية ألم وشقاء . وإن تفكيرى فى حياتى الماضية ليعيد إلى نظرى كثيراً من فرص للخير أهملتها ، ووقتاً طويلا أضعته فى التافه من الأمور ، وفقدت وقتاً أطول فى الخمول والفراغ . فأترك كثيراً من الخطط العظيمة لم تحاول ، وكثيراً من المحاولات الخطيرة لم تتم . فليس عقلى الآن مثقلا بجريمة ينوء بها . وأهيىء نفسى للهدوء ، وأحاول أن أجرد أفكارى من الآمال والهموم التى لا تزال تحاول أن تحتفظ باستيلائها القديم على القلب رغم أن العقل يراها عبثاً ، وانتظر بتواضع هادئ رزين الساعة التى لا تستطيع الطبيعة أن تؤخرها طويلا ، وآمل أن أحصل — فى حالة أفضل — على

تلك السعادة التى لم أستطع أن أجدها هنا ، وتلك الفضيلة التى لم أحصل عليها فى هذه الحياة » .

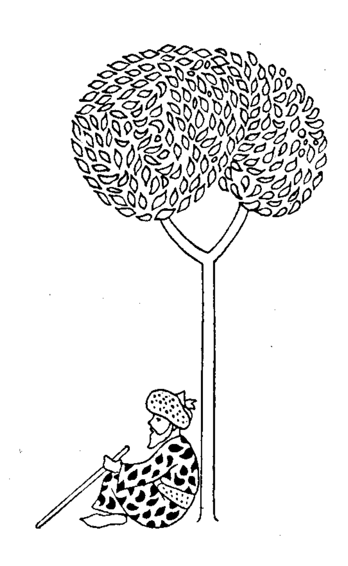
ثم نهض وانصرف تاركاً سامعيه قليلى الابتهاج بالأمل فى حياة طويلة . وسرى الأمير عن نفسه ملاحظاً أنه ليس من الحكمة أن يخيب أملنا بهذه القصة . إذ لم تعتبر الشيخوخة مطلقاً عهداً للبهجة والانشراح . وإذا كان من الممكن أن يكون المرء مطمئناً فى حالة التدهور والضعف كان من المحتمل أن تكون أيام القوة والنشاط سعيدة ، فقد يكون ظهر الحياة مشرقاً إذا أمكن أن يكون المساء هادئاً .

وشكت الأميرة فى أن الشيخوخة عهد الحقد والتذمر ، وسرها أن تقمع ما يعلقه أولئك الذين استقبلوا الحياة منذ عهد قريب من آمال . وكانت قد رأت أصحاب الضياع يحسدون ورثتهم ، وعرفت كثيراً ممن لا ينعمون بالمسرات إلا إذا استطاعوا أن يقصروها على أنفسهم .

وتكهنت بكواه بأن الرجل كان أكبر سناً مما بدا عليه ، كما كانت ميالة إلى أن تنسب شكاواه إلى اكتئابه الذى نشأ عنه الهذيان ، وظنت — إن لم يكن هذا — أنه كان سيئ الحظ ، ولهذا لم يكن قانعاً ، ثم قالت : « ليس هناك ما هو أكثر ذيوعاً من أن نطلق على حالتنا الخاصة حالة الحياة » .

ولم يشأ إملاك أن يعكر صفوهم فابتسم للآراء المرفهة

التى استطاعوا أن يعدوا أنفسهم إعداداً كاملاً لقبولها .
وتذكر أنه كان فى نفس السن واثقاً مثلهم فى السعادة المطلقة .
وكان مثلهم منتجاً للوسائل المسرية عن النفس فامتنع عن أن
يفرض عليهم معارف ليسوا مستعدين لقبولها ، والزمن نفسه
كفيل بفرضها قريباً . ثم أوت الأميرة ووصيفتها إلى مخدعيهما ،
وعلق بذهنهما جنون الفاكى ، ورغبتا أن يشغل إمــلاك
منصبه ، ويؤجل شروق الشمس فى الصباح التالى .



الفصل السادس والأربعون

الأميرة وبكواه تزوران الفلكى

بعد أن تكلمت الأميرة وبكواه عن الفلكى صاحب إملاك منفر دتين ظنتا أن طبعه قد بلغ من الأنس والغرابة فى آن واحد حداً لم تستطيعا معه أن تقنعا إلا بمعرفته معرفة أقرب . فطلبت من إملاك أن يبحث عن الوسيلة لاجتماعهم معاً .

كان هذا التكليف صعباً نوعاً ما : فإن الفيلسوف لم يستقبل أبداً زائرات مع أنه عاش فى مدينتها كثير من الأوربيين الذين يتمسكون بتقاليد بلادهم ، كما كان بها كثير من أجزاء العالم الأخرى عاشوا هناك مقلدين الأوربيين فى حريتهم . لم يرفض طلب السيدتين ، واقترحت خطط عديدة لإنجاز ما صممتا عليه . فاقترح أن تقدما إليه بوصفهما غريبتين فى ضائقة ، وكان يسهل الوصول إلى الفلكى دائماً فى مثل هذه الحال . غير أنه بعد تفكير قليل اتضح أن التعارف لا يمكن أن يتم بهذه الحيلة ، لأن محادثتهم ستكون قصيرة ، وأنهما لا تستطيعان أن تلحا عليه كثيراً إلحاحاً مقبولا .

قال راسلاس : « هذا حق ، لكن عندى مع ذلك اعتراض أقوى ضد التمويه عليه فى حالتكما . لقد اعتبرت دائماً أنه خيانة لصالح الطبيعة البشرية العام أن تجعل من فضائل أى إنسان وسيلة لخداعه سواء أكان ذلك فى مناسبة خطيرة أم ضئيلة . فجميع أنواع الخدع تضعف الثقة وتخمد جذوة الخير . وحينما يكتشف الحكيم أنكما على غير ما تظاهرتما به سيشعر بغضب طبيعى بالنسبة لرجل يكتشف — مع شعوره بكفاياته العظيمة — أنه قد خدع بعقول أقل منه منزلة . وربما أسكت فقدان الثقة — ولن يستطيع أن يتخلى عنه كلية فيما بعد — صوت النصيحة ، وقبض يد الجود . وأين تجد القدرة على استعادة خيره للإنسانية وسلامه لنفسه ؟ » .

لم يحاول أحد أن يجيب على هذا ، وشرع إملاك يأمل أن تخبو جذوة استطلاعهما . غير أن بكواه أخبرته فى اليوم التالى أنها قد وجدت حيلة شريفة لزيارة الفلكى ، وهى أنها تلتمس الإذن منه فى أن تواصل معه الدراسات التى بدأتها مع الأعرابى ، وستذهب معها الأميرة إما بوصفها زميلة لها فى الدراسة ، أو لأن اللياقة تأبى أن تأتى إليه امرأة بمفردها . قال إملاك : « إننى أخشى أن يضيق بصحبتك سريعاً ، فإن الرجال الذين قطعوا شوطاً بعيداً فى المعرفة لا يحبون أن يكرروا مبادئ فنهم . ولست واثقاً من أنك ستصغين

بإدراك تام حتى إلى المبادىء حينما يلقيها متصلة بالاستنتاجات وممزوجة بالتأملات » .

قالت بكواه : « ذلك شأنى . إننى لا أسألك سوى أن تأخذنى إلى هناك . وربما تكون معرفتى أغزر مما تتصور ، وسأجعله يظنها أعظم مما هى بتأمينى الدائم على آرائه » .

وتنفيذاً لهذا القرار أخبر الفلكى أن سيدة أجنبية قد ترامت إلى سمعها شهرته — وهى تجوب البلاد طلباً للمعرفة — فرغبت أن تتلمذ عليه . فضاعفت غرابة الاقتراح دهشته واستطلاعه . وحينما وافق على أن يأذن لها بعد تفكير قصير لم يستطع أن يظل من غير جزع حتى اليوم التالى .

فلبست السيدتان أفخم ثيابهما ، وصحبهما إملاك إلى الفلكى فسره أن يرى نفسه موضع التبجيل من أشخاص على هذا الجانب من روعة المظهر وفخامته . وعند تبادل المجاملات الأولى كان خائفاً وخجلا ، ولكن عند ما انتظم الحديث استجمع قواه ثانية ، وحقق ظن إملاك فى شخصيته . وعند ما سأل بكواه عما حول ميلها نحو الفلك قصت عليه قصة مغامرتها عند الهرم ، والوقت الذى قضته فى جزيرة الأعرابى . ألقت عليه قصتها بسهولة ولباقة فاستولت محادثتها على قلبه . ثم تحول الحديث إلى الفلك فعرضت عليه ما عرفت ، واعتبرها آية من

آيات العبقرية . وتوسل إليها ألا تعدل عن دراسة بدأتها بمثل هذا التوفيق .

ثم عادتا لزيارته مراراً ، وكانتا فى كل مرة يرحب بهما أكثر من سابقتها ، وحاول الحكيم أن يسرى عنهما حتى تطيلا زيارتهما ، لأنه وجد أفكاره تزداد إشراقاً فى صحبتهما . فتقشعت سحائب الكلفة تدريجاً حينما ألزم نفسه باستقبالهما ، وحزن حينما ترك عند رحيلهما لعمله القديم وهو تنظيم الفصول .

وكانت الأميرة ووصيفتها قد راقبتا فى ذلك الوقت شفتيه شهوراً عدة ، ولم تستطيعا أن تظفرا بكلمة واحدة يمكنهما أن تستدلا منها على استمراره أو عدم استمراره فى الاعتقاد بأنه مفوض فوق الطبيعة . وكثيراً ما دبرتا أن تواجهاه بإعلان صريح ، ولكنه كان يتملص بسهولة من حملاتهما . ومهما كان الجانب الذى طاردتاه منه كان يفلت منهما إلى بعض الموضـــوعات الأخرى .

ولمـــا نمت بينهم الألفة دعتاه كثيراً إلى بيت إملاك حيث خصتاه باحترام غير عادى فبدأ يبتهج شيئاً فشيئاً بالمسرات الدنيوية ، وأخذ يحضر مبكراً ، ويغادر متأخراً ، ويعمل على أن يزكى نفسه عندهما بالمثابرة والإذعان ، ويثير حبهما لاستطلاع فنون جديدة ، وبذلك قد تحتاجان إلى المزيد من مساعدته .

وكلما قامتا بنزهة للسرور أو البحث توســـل إليهما أن يصحبهما .

وأيقن الأمير وأخته أن الفلكى أهل لثقتهما من غير خطر بعد أن جربا طويلا نزاهته وحكمته . وخشية أن يعلق آمالا باطلة على المجاملات التى قوبل بها كشفا له عن حقيقة حالهما ، مع بواعث رحلتهما ، وسألاه رأيه فى « اختيار طريق الحياة » .

قال الحكيم : « إننى لا أستطيع أن أرشدكما إلى ما تختاران من الحالات المتباينة التى يبسطها العالم أمامكما ، وإننى لا أستطيع سوى أن أخبركما أننى كنت مخطئاً فى اختيارى . لقد قضيت وقتى فى دراسة من غير تجربة ، وفى تحصيل علوم لا يستطيع أغلبها أن يخدم الإنســـان إلا من بعد . لقد اقتنيت المعرفة على حساب جميع وسائل الراحة المعتادة فى الحياة . ولقد حرمت رقة الصداقة النسوية المحببة إلى النفس ، والاتصال السعيد بحنو الأسرة . وإذا كنت قد حصلت على امتيازات فوق الطلاب الآخرين فقد كانت مصحوبة بالخوف والقلق والشك والتردد . ولقد بدأت أرتاب حتى فى حقيقة هـــذه الامتيازات مهما كان نوعها منذتشتتت أفكارى بازدياد مخالطتى للعالم . وحينما استغرقت أياماً قليلة فى لهو سار ملت دائماً للاعتقاد بأن أفكارى قد انتهت إلى خطأ ، وأننى قد عانيت كثيراً ، وعانيته من غير نتيجة » .

وسر إملاك أن يجد عقل الحكيم يبدد غيومه ، وقرر أن يصده عن الأبراج والأفلاك حتى ينسى واجبه فى تنظيمها ، ويستعيد عقله تأثيره الأصلى .

ومن ذلك الوقت كان يستقبل الفلكى كما يستقبل الخاصة من الأصدقاء ، فشاركهم جميع مشروعاتهم ومسراتهم ، وجعله احترامه لهم متنبهاً إلى أقوالهم وأعمالهم . ولم يدع له نشاط راسلاس وقتاً طويلا من الفراغ : فكان هناك دائماً شيء لا بد من إنجازه ، فيقضى الصباح فى الملاحظات التى صلحت مادة لحـــديث المساء ، ويختتم المساء بخطة للغد .

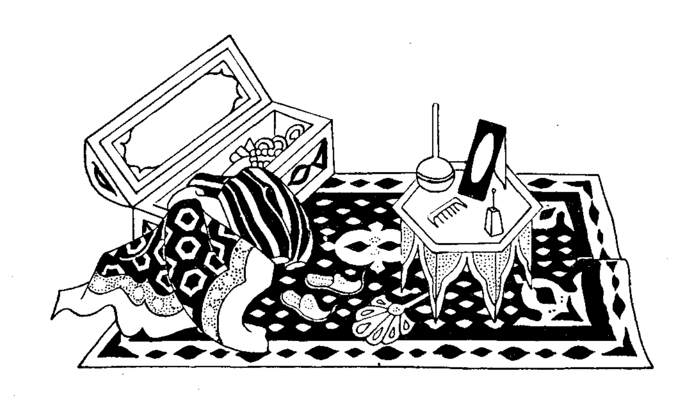
واعترف الحكيم لإملاك أنه منذ اندمج فى ضجيج الحياة المبهج ، وقسم ساعاته بين المتع المتتابعة وجد أن اعتقاده بسيطرته على السموات قد تلاشى تدريجاً من ذهنه ، وشرعت ثقته تضعف برأى لم يستطع أن يدلل عليه للآخرين ، ووجده وقتئذ خاضـــعاً لتغيرات لم يكن للعقل دخل فيها ، وقال : «لو انفردت ساعات قليلة لطغت على نفسى اعتقاداتى المتأصلة فيها ، وقيدت أفكارى بعنف لا قبل لى بمقاومته ، ولكن سرعان ما يحلها حديث الأمير ويحررها فى الحال دخول بكواه . فمثلى مثل رجل يخشى عادة الأشـــباح ، فهو يطمئن بمصباح ، ويعجب للخوف الذى يزعجه فى الظلام . فإذا انطفأ مصباحه شعر ثانية بالمخاوف التى يعلم أنه لن يشعر بها متى حل الضوء

محل الظلام . غير أننى أخشى أحياناً أن أولع بهدوئى فأهمل واجبى — وإهماله جريمة — وأن أنسى مختاراً الرسالة العظيمة التى عهد إلى بها . وما أبشع جرمى إن أنا حابيت نفسى فى خطأ شائع ، أو أغرتنى راحتى بأن أترك مسألة على هذا الجانب من الأهمية ، ولم نتبين بعد خطأها من صوابها » .

أجاب إملاك : « ليس بين أمراض الخيال ما يستعصى علاجه استعصاء أشد من ذلك الذى يتعقد بالخوف من الخطيئة. فالوهم والضمير يتبادلان وقتئذ التأثير فينا . ويغلب جداً أن يغيرا مكانهما إلى حد أننا لا نستطيع التمييز بين هواجس أحـــدهما وأوامر الآخر . فإذا عرض الوهم صوراً لا تتفق مع الأخلاق أو الدين طردها العقل حينما تؤلمه. ولكن حينما تظهر الأفكار الحزينة فى صورة الواجب تستولى على قوانا من غير معارضة لأننا نخاف أن نخرجها أو نطردها . ولهذا السبب يكثر أن يكون من يعتقد فى الخرافة من ذوى الأفكار الحزينة ، كما يغلب أن يكون أصحاب الأفكار الحزينــــة ممن يؤمنون بالخرافات .

« ولكن لا تدع الإيحاءات الناشئة عن التخوف تقهر تفكيرك السليم ، فخطر الإهمال لا يختلف عن احتمال قيامك بالواجب الذى لو نظرت إليه نظرة حرة لوجدته ضئيلا جداً ، وأن ضآلته

تزداد على الأيام . فافتح قلبك لآثار النور الذى يشع عليك من حين لآخر . وحينما تلح عليك الشكوك والتردد طر إلى العمل أو إلى بكواه . ولتكن هذه الفكرة دائماً نصب عينيك ، وهى أنك لست ســوى ذرة واحدة فى كتلة البشرية ، كما أنه ليس لك مثل هذه الفضيلة التى تختص بسببها برضا خارق للعادة ، ولا الرذيلة التى تنفرد من أجلها بالعذاب الأليم » .



الفصل السابع والأربعون

الأمير يدخل ويقدم موضوعاً جديداً

قال الفلكى : « كثيراً ما فكرت فى كل هذا ، غير أنه قد طال خضوع عقلى لفكرة تغمره ولا يستطيع ضبطها إلى حد أنه لا يطمئن إلى قراراته الخاصة . إننى أرى الآن كيف قضيت على راحتى قضاء مبرماً بسماحى للأوهام أن تفترسنى خلسة ، ولكن الأفكار الحزينة تأبى مصارحة الغير بحقيقة نفسها . وما وجدت رجلا من قبل استطعت أن أفضى إليه بمتاعبى رغم أننى كنت واثقاً أن ذلك يسرى عنى . وإنى لأبتهج حين أجد أفكارى الخاصة مؤيدة بأفكارك . وأنت لا تخدع بسهولة ، ولا يمكن أن يكون لك باعث أو غرض فى خدعى . وآمل أن يبدد الوقت والتغيير الغيوم التى أحاطت بى وقتاً طويلا جداً ، وأن ينقضى الجزء الأخير من أيامى فى سلام » .

قال إملاك : « إن علمك وفضيلتك كفيلان بتحقيق آمالك » .

ثم دخل راسلاس مع الأميرة وبكواه ، وسأل عما إذا

كانا قد ابتكرا تسلية جديدة لليوم التالى . وقالت نكايه : « هكذا تكون حال الحياة : لا يسعد فيها أحـــد إلا بأمل التغيير . والتغيير نفسه لا شىء ، لأنه حينما تغير نرغب فى التغيير ثانية . إن العالم لم يستنفد بعد ، فلنبحث غداً عن شىء لم أره أبداً من قبل » .

قال راسلاس : « إن التنويع ضرورى ليقنع الإنسان بحياته ، حتى الوادى السعيد قد أمضنى بأنواع ترفه المتكررة . ومع ذلك لم أستطع أن أكف عن تأنيب نفسى على جزعى حينما رأيت رهبان القديس أنطونيوس يحيون — من غير تبرم — حياة ليست ذات نوع واحد من البهجة ، بل ذات نوع واحد من المتاعب » .

أجاب إملاك : « إن هؤلاء الرجال أقل شقاء فى ديرهم الهادئ من الأمراء الأحباش فى سجن ملذاتهم . ومهما عمل الرهبان فالدافع إلى عملهم مسوغ كاف ومعقول . فكدهم يزودهم بما يحتاجون إليه ، لهذا لا مفر لهم منه ، وجزاؤهم من غير شك محقق . وعبادتهم تعدهم لحالة أخرى ، وتذكرهم بدنوها ، وتجعلهم أهلا لها . ووقتهم موزع توزيعاً منتظما : فتؤدى واجباتهم الواجب تلو الآخر . وبذلك لا يتعرضون لتشتت الفكر بسبب الاختيار غير الرشيد ، ولا يفقدون

أنفسهم فى ظلال خمول يتسم بالغفلة وعدم المبالاة . فهناك عمل محدد يؤدى فى وقته المناسب . وأعمالهم مبهجة لهم لأنهم يعتبرونها من أعمال الورع والتقوى ، بها يتقدمون دائما نحو سعادة لا نهاية لها » .

قالت نكايه : « هل تظن أن نظام الرهبان أكثر قداسة ، وأنه حالة أقل نقصاً من أية حالة أخرى ؟ ألا يأمل كذلك فى السعادة المستقبلة ،من يتحدث إلى الناس علانية ، ومن يغيث المنكوب بإحسانه ، ومن يثقف الجاهل بمعارفه ، ومن يسهم فى تحسين النظام العام للحياة ، حتى لو تركوا أنواع التعـــذيب التى تؤدى فى الصومعة ، وأباحوا لأنفسهم أن يمارسوا أمثال الملاذ التى تسمح بها حالهم ؟ » .

قال إملاك : « هذه مسألة اختلف الحكماء عليها طويلا ، وحار فى شأنها الأخيار . وإنى لأخشى أن أنصر جانباً على آخر . وإن من يعيش عيشة راضية فى الحياة خير ممن يعيش نفس الحياة فى دير . لكن قد لا يستطيع كل إنسان أن يدفع عوامل الإغراء فى الحياة العامة ، وإذا لم يستطع أن يقهرها تقهقر أمامها تقهقراً منتظما ، فللبعض قدرة ضئيلة على فعل الخير ، كما أن البعض لا يستطيع مقاومة الشر إلا قليلا . والكثيرون منا برمون بطول مكافحتهم للشدائد ، ويودون

أن يطردوا تلك الوجدانات التى شغلتهم على غير جدوى .
وأعفى الكثير بحكم الشيخوخة والأمراض من الواجبات المجهدة نحو المجتمع . فقد يشعر العاجز ومن يخشى الحياة بسعادة فى الالتجاء إلى الأديرة ، وفيها يجد الضائق بالحياة راحته ، والتائب مجالا لتأمله . وخلوات الصلاة والتأمل هذه تتفق مع عقل الإنسان ، حتى إنه يندر أن تجد فرداً واحداً لا يتمنى أن يختم حياته فى التجرد الورع بين نفر قليل من أصحابه لهم ماله من الجد » .

قالت بكواه : « لقد كانت هـــذه أمنيتى فى أغلب الأحيان ، ولقد سمعت الأميرة تصرح بأنها لا تستطيع أن تفارق الحياة بين حشد من الناس » .

ومضى إملاك يقول : « إن الحرية فى مزاولة الملذات البريئة ليست محل نزاع ، ولكن يجب مع ذلك أن نحدد ماهية الملذات البريئة . فشر أية ملذة يمكن أن تتصورها نكايه ليس فى مزاولتها بل فى نتائجها . فالملذات قد تكون فى حد ذاتها بريئة ، ومع ذلك تصبح ضارة إذا حببت إلينا حالة نعلم أنها زائلة ومرحلة اختبار ، وأبعدت أفكارنا عن حالة تقربنا إلى بدئها كل ساعة تمر ، ومهما طال الزمن لا يوصلنا إلى نهايتها . والتعذيب ليس فى حد ذاته فضيلة ، وليست له فائدة أخرى سوى أن يحررنا من إغواء الحواس . أما فى

حالة الكمال المستقبل التى نتطلع إليها جميعاً فستكون فيها ملاذ من غير خطر ، وأمانى من غير حجر » .

كانت الأميرة صامتة ، والتفت راسلاس إلى الفلكى وسأله هل يستطيع أن يؤجل عزلتها ، وذلك بأن يريها شيئاً لم تره من قبل .

قال الحكيم : « لقـــد كان استطلاعك شاملا وطلبك للمعرفة قوياً حتى إنه ليس من السهل مطلقاً أن توجد الآن طرائف تثنيك عن عزمك . لكن مالا يمكن الحصول عليه بعد الآن من الحى قد يجود به الميت ، وإن بين عجائب هذه البلاد سراديب الموتى أو المستودعات القديمة التى وضعت فيها جثث أقدم الأجيال حيث لا تزال باقية من غير تعفن أو فساد بفضل الأصماغ التى استخدمت فى تحنيطها » .

قال راسلاس : « إننى لا أعرف ما تستطيع أن تقدمه رؤية سراديب الموتى من مسرات ، غير أننى قررت أن ألقى عليها نظرة إذ لم يقدم أى شىء آخر . وسأضع هذا بجانب أشياء كثيرة أخرى فعلتها لمجرد أننى أريد أن أفعل شيئاً » .

فاستأجروا حرساً من الفرسان ، وزاروا سراديب الموتى فى اليوم التالى . وحينما هموا بالهبوط إلى كهوف الموتى قالت

الأميرة : « بكواه ! نحن الآن نغزو مساكن الموتى ثانية ، وأعرف أنك ستتخلفين ، فآمل أن أجدك سالمة حين أعود » .
فأجابت بكواه : « لا . لن أتخلف . سأهبط بينك وبين الأمير » .

ثم نزلوا جميعاً ، وجالوا دهشين خلال سراديب الموتى تحت الأرض حيث صفت الجثث على كلا الجانبين .



الفصل الثامن والأربعون

إملاك يتحدث عن طبيعة الروح

قال الأمير : « ما السر فى أن المصريين يحفظون تلك الجثث بهذا القدر العظيم من النفقات ، بينما يحرقها بعض الأمم ، والبعض يضعونها لتختلط بالتراب ، والجميع يتفقون على إبعادها عن أنظارهم بمجرد أن تؤدى الطقوس المناسبة ؟ » .

قال إملاك : « إن منشأ العادات القديمة غير معروف ، فكثيراً ما يستمر العمل بعد زوال السبب الذى دعا إليه . ومن العبث فيما يتعلق بالطقوس الخرافية أن نتكهن بأسبابها ، لأن الذى لم يمله العقل لا يستطيع أن يعطى سببا له . ولقد اعتقدت طويلا أن عملية التحنيط لم تظهر إلا من الحنو نحو بقايا الأقارب أو الأصدقاء . وأنا أكثر ميلا إلى هذا الرأى ، لأنه لا يمكن – على ما يظهر – أن تكون هذه العناية عامة ، إذ لو حفظ جميع الموتى لأصبحت مستودعاتهم على مر الأيام أوسع رقعة من مساكن الأحياء . وإننى أظن أن الأثرياء والأشراف فقط هم الذين حفظت جثثهم من التعفن والفساد ، وترك الباقون للطبيعة تفعل بهم فعلها .

«لكن يظن عادة أن المصريين اعتقدوا أن الروح تبقى

ما بقى الجسد غير متحلل ، ولهذا حاولوا هذه الطريقة لتجنب الموت » .

قالت نكايه : « كيف أمكن أن يفكر المصريون الحكماء فى الروح على هذا النحو من السذاجة ، وإذا استطاعت الروح أن تعيش مرة بعد انفصالها من الجسد فماذا يمكن أن تناله أو تخشاه منه بعد ذلك ؟ » .

قال الفلكى : « كان لا بد أن يخطىء المصريون فى تفكيرهم فى عهد ظلام الوثنية وإبان عهد الفلسفة . إن طبيعة الروح لاتزال موضع خلاف ، فإنه رغم جميع الفرص المتاحة لنا للمعرفة الواضحة لا تزال طبيعة الروح مثاراً للنزاع ، إذ لايزال البعض يرى أنها قد تكون مادة ، ومع ذلك يعتقد أنها خالدة » .

أجاب إملاك : « نعم لقد قال البعض بأنها مادة ، ولكنى أعتقد أنه لم يقل بهذا أحد ممن يعوفون كيف يفكرون ، لأن جميع الأحكام النهائية للتفكير السليم تقضى بأن العقل مجرد من المادة ، وجميع ما يشير إليه الحس وبحوث العلم تتفق فى التدليل على لاشعورية المادة .

« ولم يظن أبدا أن التفكير من خواص المادة ، أو أن كل ذرة من ذرات المادة كائن مفكر . وإذا خلا أى جزء فى المادة من الفكر فأى جزء نستطيع أن نظنه مفكرا ؟ ولا تختلف

مادة عن أخرى إلا فى الشكل والكثافة والحجم والحركة واتجاه الحركة . فإلى أى من هذه منفردة أو مجتمعة نستطيع أن نلصق الوعى ؟ وإن حالات الوجود المادى هى أن يكون مستديرا أو مربعا ، جامدا أو سائلا ، ضخماً أو ضئيلا ، بطىء الحركة أو سريعها ، فى هذا الاتجاه أو ذاك ، وكلها متساوية فى مدى بعدها من طبيعة التفكير . وإذا كانت المادة وقتا ما مجردة من الفكر فإنه لا يمكن أن تجعل مفكرة إلا بتغيير جديد ، غير أن جميع التغيرات التى يمكن أن تلحقها متساوية فى عدم اتصالها بالقوة المفكرة » .

قال الفلكى : « لكن الماديين يؤكدون أنه قد تكون للمادة خواص لا نعلمها » .

فرد إملاك : « لا يعد من الكائنات العاقلة من يدحض ما يعلم باحتمال وجود شىء لا يعلمه ، ومن يستطيع أن يقيم الإمكانيات المفترضة أمام الحقائق الثابتة المقررة . وكل ما نعرفه عن المادة هو أنها خاملة لا حس فيها ولا حياة . وإذا كان هذا الاعتقاد لا يمكن أن يعارض إلا بالإشارة إلى شىء لا نعرفه فقد حصلنا فى تأييد اعتقادنا على كل برهان يسلم به العقل البشرى . ولو طغى ما لا نعرف على ما نعرف ما استطاع كائن ليس عليما بكل شىء أن يصل إلى يقين » .

قال الفلكى : « فلنكف عن الحد من قدرة المولى فى غطرسة وكبرياء » .

فأجاب الشاعر : « ليس حدا من قدرة القدير على كل شيء أن نظن أن شيئاً ما ليس متلائماً مع آخر ، وأن نفس القضية لايمكن أن تكون صادقة وباطلة فى آن واحد ، وأن نفس العددِ لايمكن أن يكون زوجياً وفردياً معا ، وأن التفكير لايمكن أن يوهب لما خلق عاجزاً عن التفكير » .

قالت نكايه : « إننى لاأعرف فائدة كبيرة لهذا الموضوع . هل هذه اللامادية — التى برهنت عليها فى رأيى برهنة كافية — تتضمن بالضرورة بقاء أبديا ؟ » .

قال إملاك : « إن أفكارنا عن اللامادية سلبية ، وهى لهذا مبهمة . ويظهر أن اللامادية قدرة طبيعية على بقاء دائم نتيجة لتجردها من أسباب الانحلال والفناء . فكل ما يفنى يفنى بتحلل أجزاء نسيجه وانفصالها بعضها عن بعض ، فلا نستطيع أن نتصور كيف يفنى بالطبيعة أو يفسد مالا أجزاء له ، ولا يمكن بناء على هذا تحلله » .

قال راسلاس : « إننى لاأعرف كيف أتصور أن أى شيء ليس له امتداد . وكل ما يمتد لابد أن تكون له أجزاء . وأنت تعترف بأن ما له أجزاء قد يفنى ويتهدم » .

أجاب إملاك : « تدبر أفكارك وستقل المصاعب أمامك .

ستجدها جوهراً لاامتداد له . والصورة الذهنية ليست أقل واقعية من الحجم المادى ، ومع ذلك ليس للصورة الذهنية امتداد ، فحينما نفكر فى هرم ليست الفكرة التى يملكها عقلك عن الهرم أقل تحديدا من الهرم نفسه ماثلا أمامك . وأى فراغ تشغله فى ذهنك الصورة الذهنية لهرم أكثر مما تشغله الصورة الذهنية لحبة قمح ، أو كيف يمكن أن تسمح أية واحدة منهما بالتمزق والانفصال ؟ والنتيجة كالعلة ، والفكر كالملكة التى تفكر ، وهى ملكة لاتتأثر ولاتفنى بتحلل أجزائها » .

قالت نكايه : « لكن الكائن الذى أتحاشى ذكره ، الكائن الذى خلق الروح قدير على إبادتها » .

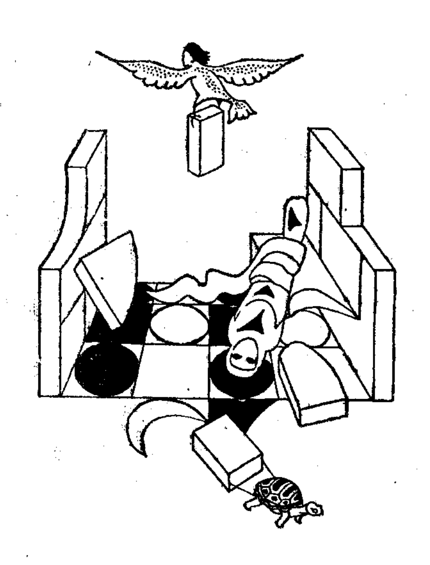
فأجاب إملاك : « نعم يستطيع إبادتها ، لأنها — مهما كانت غير قابلة للفناء — تستمد قدرتها على البقاء من طبيعة أسمى . أما أنها لا تفنى بأى سبب متصل بالفساد أومبدأ التعفن فذلك ما تؤيده الفلسفة ، غير أن الفلسفة لاتستطيع أن تتجاوز هذا الحد . وأما أنها لاتباد بوساطة من خلقها فذلك ما نتعلمه بخشية وخضوع من ثقات أعلى منزلة » .

فوقف أعضاء المجلس كلهم هنيهة صامتين ومستجمعين أفكارهم ، وقال راسلاس : « فلنغادر منظر الفناء هذا ، فما أشد كآبة ديار الموتى هذه لمن لم يعرف أنه لن يموت أبدا ،

وأن من يعمل الآن سيستمر فى عمله ، وأن من يفكر سيواصل تفكيره إلى الأبد . هؤلاء الذين يرقدون أمامنا ممددة أجسامهم ، حكماء الأزمنة القديمة وجبابرتها ، ينذروننا بأن نذكر قصر حالتنا الراهنة . وربما كانوا قد اختطفوا بينما كانوا مشغولين انشغالنا فى اختيار طريق الحياة » .

قالت الأميرة : « إن اختيار طريق الحياة قد أصبح بالنسبة لى أقل أهمية ، وآمل من الآن أن أفكر فقط فى اختيار طريق الأبدية » .

ثم أسرعوا خارج الكهوف ، وعادوا إلى القاهرة فى حماية حرسهم .



الفصل التاسع والأربعون

خاتمة من غير خاتمة

كان ذلك الوقت زمن فيضان النيل ، وقد بدأ النهر يرتفع بعد زيارتهم لسراديب الموتى بأيام قليلة .

واضطروا لأن يلزموا دورهم . ولما كانت المنطقة كلها معطاة بالمياه لم تمكنهم من أية نزهة . ولما كانوا مزودين تمام التزويد بموضوعات للحديث سلوا أنفسهم بالموازنات بين الأشكال المختلفة للحياة التى كانوا قد لاحظوها ، والخطط المتباينة التى كانوا قد كونوها .

ولم تكن بكواه مبتهجة بأى مكان ابتهاجها بدير القديس انطونيوس حيث أعادها الأعرابى إلى الأميرة ، وودت فقط لو ملأته بالعذارى التقيات ، وجعلت هى رئيسة للراهبات . فقد كانت ضائقة بطول الانتظار والاشمئزاز من الحياة ، وكان بودها أن تستقر فى حياة غير متقلبة .

واعتقدت الأميرة أن أثمن الأشياء الدنيوية هو المعرفة ، ورغبت أن تتعلم أولا العلوم ، واقترحت بعد ذلك أن تؤسس كلية للسيدات العالمات ترأسها هى حتى تستطيع — بالتحدث إلى الكبيرات وتعليم الصغيرات — أن تقسم وقتها بين تحصيل الحكمة وتلقينها للغير ، وتعد للجيل القادم نماذج من الحكمة العملية والتقوى .

وود الأمير لو كانت له مملكة صغيرة يقيم فيها بنفسه العدالة ، ويشرف على أقســام الحكومة غير أنه لم يستطع أبداً أن يثبت حدود مملكته ، وكان دائماً يزيد من عــدد رعاياه .

أما إملاك والفلكى فكانا قانعين بالسير مع تيار الحياة من غير أن يحددا اتجاههما إلى ثغر معين .

ولقد عرفوا معرفة تامة أن هذه الرغبات التى كانوا قد كونوها لا يمكن الحصول على أية واحــدة منها ، ففكروا فترة فيما ينبغى أن يعمل ، ثم قرروا بعد انتهاء الفيضان أن يعودوا إلى الحبشة .



مطبعة كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع وقف الخربوطلي - الظاهر تليفون ٤٤١١٨

مطبعة كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع وقف الخربوطلي - الظاهر تليفون ٩٠١٦٨